# الغايات والاهداف التربوية في القرآن والسنة

إعداد

الأستاذ الدكتور فتح الباب عبد الحليم سيّد

كلية التربية - جامعة حلوان

القاهرة - مصر

# الغايات والاهداف التربوية في القرآن والسنة

تنطلق هذه الدراسة من أن التربية تركيبة اجتماعية معقدة الى حد ما، يصنعها المجتمع ، وهي بالنسبة للمجتمع المسلم تركيبة حرة لا تتقيد الا بما جاء به نص من كتاب الله او سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، فالمسلمون هم الذين يحددون غاياتها، وما تنطوي عليه من قيم، وهم ايضا الذين يصممون العمليات التي تحقق هذه الغايات في ضوء مفاهيمهم الخاصة والتي ينبني عليها المجتمع المسلم كله بمؤسساته.

وتنطلق هذه الدراسة ايضا من مفهوم لغايات التربية، يفرق بينها وبين الاهداف الخاصة للتربية؛ فالغاية هي الشئ ذو القيمة الذي ينتهي اليه كل سعي، والذي يستحق ان يتمسك به المجتمع كله، يحققه افراده، في جميع مستوياتهم العمرية،وفي شتى ظروف حياتهم، يحفظ لهم كيانهم، ويجعل حياتهم سعيدة.والحياة بالنسبة للمجتمع المسلم حياة الدنيا وحياة الآخرة، وهذه نقطة يتميز بها الاسلام على غيره من الاديان او العقائد، فكثير من غير المسلمين يقولون "ما هي إلاّ حَياتُنا الدُّنيا نموتُ ونحْيا وما يُهْلِكُنا إلاّ الدَّهْرُ، وما لَهُم بذلكَ منْ علْم، إنْ هُم إلاّ يظُنّون" (الجاثية، ٢٤. أما المسلم فيقول "ربَّنا آتنَا في الدّنْيا حَسَنَةً وفي الآخرةِ حَسَنَةً " حين يقول غيره "ربَّنا آتِنا في الدُّنْيا حَسَنَةً وما لهُ في الآخِرَةِ من خَلاَق".

وكذلك يصح ان نقول إنّ الغايات هي الهدف من كل الاهداف، وهي النقطة التي تلتقي عندها جميع شؤون التربية، ومنها تتفرع احوالها. ويتفرع من هذه الغايات أهداف تابعة ثم أهداف فرعية بالضرورة، وقد تختلف هذه الاهداف الفرعية باختلاف العصور والمجتمعات وفق تصورات هذه المجتمعات وظروفها، ومع ذلك تظل

الغايات هي هي ، ولذلك نقول إنّ الاهداف تتدرج فيما تحققه للفرد لتمنكه من تحقيق الغايات.

الاهداف الفرعية تتنوع، فهي اهداف حياتية، وهي تلك الاهداف التي تمكن الفرد من ان يتعامل مع الآخرين من أفراد المجتمع أخذا وعطاءاً مستفيداً من أهداف أخرى اكتسبها، نستطيع ان نسميها اهداف محتوى، واهداف طريقة. ونعني بأهداف المحتوى تلك الاهداف التي يحقق بها الفرد كسبا لمعاشه، لمادة علمية او فنية. اما أهداف الطريقة فتحقق للفرد اكتساب السلوك الذي يتعلم به العلم او يحصل به الفن ويفيد منهما في حياته.

## الغايات:

الحرية هي غاية التربية في الاسلام، الحرية بمعنى الخلاص من القيود التي تعوق او تحد من تفكير الانسان، حركته، وفعله، واتخاذه قراره عن رضى ذاتي. وهي مضمون قوله تعالى "وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلاّ ليعْبُدُون" (١) فلا يخضعون أبدا إلا له. هذه الغاية تتميز بسمتين: أنها عامة او كلية، تصلح غاية للناس جميعا؛لأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم مبعوث للناس كافة "وما أرْسَلْناكَ إلاّ رحمةً للعالَمين" (الانبياء،١٠٧)، وأنّها تكون غاية لكل ما قبلها وليست وسيلة لغاية بعدها؛ فسلوك الانسان مختلف عن سلوك الحيوان من حيث الغاية، فالحيوان لا يهدف لغاية اقصى من الوجود الفطري. اما الوجود عند الانسان فليس هدفا في حد ذاته، وإلا كان وجودا استهلاكيا، يستهلك نفسه بنفسه، وقد كره الله اتخاذ الحياة – مجرد الحياة – هدفا في حد ذاتها بقوله في معرض ذم اليهود وبعض المشركين "ولَتَجِدَنَّهُمْ أحْرصَ النّاسِ على حَيَاةٍ، ومِنَ الذين أشْرَكُوا، يَوَدُّ أحَدُهُم لَوْ يُعَمَّرُ ألفَ سَنَةٍ، وما هو بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ العَذابِ أن يُعَمَّر، واللّهُ بَصيرٌ بما يعْمَلُون" (البقرة، ٩٦).

الغاية او الهدف معناه التنبؤ مقدما بالختام الممكن، فما الغاية او الختام الممكن لحياة الانسان؟ هل هو مخلوق بغير غاية سوى ان يعيش؟ وفي معرض لفت انظارنا

الى ذلك يسأل الله تعالى بقوله:"أَيَحْسَبُ الإنْسانُ أن يُتركَ سدى؟" (القيامة،١٣٦). وقوله: "أَفَحَسِبْتُم أنّمَا خَلَقْناكُم عَبَثَاً وأنّكُم إلينَا لا تُرجَعُون؟" (المؤمنون، ١١٥). بالطبع لا ... إذن لماذا وُضِعَ في الارض؟ الجواب ليكون خليفة الله، وذلك وفق قوله تعالى: "وإذْ قال ربُّكَ للملائكة إنّي جاعلٌ في الأرضِ خليفةً"(البقرة :٣٠)، والخليفة هو من يخلُفُ غيْرهُ وينُوبُ عنْه، والخليفة هو الحاكم، ومنه قوله تعالى: "يا داودُ إنّا جَعَلْناكَ خليفةً فِي الأرْضِ، فاحْكُم بين النّاسِ بالحقّ" (ص، ٢٦). ويكون المعنى عندئذ أن الله سبحانه وتعالى خلق لآدم وذريته ما في الارض جميعا وسخره له، وجعله حاكما عليها لينشر فيها العدل بما هداه الله إليه من العلم (٢)، "وكيف ينوب؟ وكيف يحكم بالعدل إن لم يكن حرا؟ وهكذا قرر الاسلام الحرية غاية للانسان في حياته، لها يعيش وبها يعيش، وذلك واضح في قول الله تعالى: "وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلاَ ليعْبُدُون ، مَا أُرِيدُ منْهُم مِن رزقٍ، ومَا أُرِيدُ أن يُطْعِمُون، إنّ الله هو الرّزاقُ ذُو القُوةِ المتِين" (الذاريات، ٥٦ـ٥٨)

لكن كيف تكون الحرية في العبودية؟ في الخضوع في عبادة الله؟ نعم تكون الحرية حيث لا قيد ولا تنعدم القيود إلا إذا عاش الانسان وحده، مالكا لقوة يسيطر بها علي بيئته من حوله. وهل يعيش إنسان وحده؟ لا يشاركه حيوان، ولا جماد، ولا يشاركه احد من البشر؟ لا ..

لو نظرت كيف تنشأ القيود لوجدتها تفرض على الفرد ممن حوله، ومن صاحب سلطة أكبر من سلطته، او سلطان أشمل لكنه حتى وأن ملك السلطان، لا يغنيه سلطانه عمن حوله.ولا تغنيه قوته من ضعفه ولا من قصور ذاته، ولهذايحتاج للآخرين يستعبدهم او يستعبدونه او يتعاونون. وهكذا اذا عاش الانسان في مجتمع، ولا بد ان يعيش، تقيد بحدد هذا المجتمع، بعناصره، وهي رفاقه من بني الانسان والطبيعة من حوله، بما فيها من حيوان وجماد، سواء تحرك او سكن. اذن من يضع هذه الحدود بين الرفاق ليحفظ لكل منهم حريته؟ أهو وحده؟ ام رفاقه؟ ام كلهم جميعا؟ ام صاحب سلطان من رفاقه؟.

نادرا ما يضع المرء حدوده لنفسه دون منازع حتى وان كان دكتاتورا، وانما يضعها مع أيّ من هؤلاء، سواء اشترك اشتراكا فعليا معهم، او ناب عنهم جميعا فريق منهم، وعندئذ فهو ليس حرا الحرية المطلقة، ولذلك يبحث عن الحرية العادلة المثلى التي تعطيه بقدر ما تأخذ منه. هذه الحرية العادلة بعيدة المنال ان لم يقبل حلا وسطا بين مصلحته ومصالح الآخرين. وتدخل في ذلك عوامل كثيرة فقد يكون شركاؤه في المجتمع اقل او اكثر ادراكا للحقائق منه، او اقل او اكثر تعقلا للأمور وحكمة منه وربما تعارضت غاياتهم وحاجاتهم وتباينت.

هذه الحلول الوسيطة تخضع ايضا - وفي كثير من الاحيان - لصاحب السلطان الاقوى علما او نفوذا او جسما ... الخ. وفي قليل من الاحيان للحق، ومن هنا لا تكون الحرية مثلى عادلة، إلا اذا وضعت حدودها او ضوابطها من غير ذي مصلحة عندك ولا عند رفاقك، ووضعت من غير ذي حاجة الى غيره جميعا. ولا تكون عادلة إلاّ من صاحب إدراك شامل لجميع امور الحياة، وصاحب حكمة بالغة تعدل بين الجميع، وصاحب سلطان لا يعتمد على غيره ولا من حوله، وانما يستمد قوته من ذاته ولا يضره انصراف احد عنه، ولا ينفعه قربه منه، يحبك بقدر حبك للحرية لك وللآخرين. وهذا بالنسبة للبشر كمال شبيه بالمحال؛ ولهذا يتضح ان الخضوع لله في وضع هذه الحدود بين الناس هو الحرية نفسها؛ لأنّ هذه الشروط والصفات السالفة لا تتوفر إلاّ في ذات الله.

فالله هو العليم واحاط بكل شئ، وهو الحكيم، وهو القادر، له جنود السموات والارض، وهو الغني عن العالمين، لا تنفعه طاعة المطيع ولا تضره معصية العاصي ولذلك يقول: "إنْ تكْفُرُوا فإنَّ اللّهَ غَنِيٌّ عنكُم، ولا يرْضَى لعباده الكفْرَ، وإنْ تشْكُروا يرْضَهُ لكُم، ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ، ثُمّ إلى رَبّكُم مَرْجِعُكُم، فيُنَبِئُكُم بما كُنتُم تعْمَلُون،إنّهُ عليمٌ بذاتِ الصُّدُور" (الزمر، ٧). بمعنى ان يرفض الناس الخضوع لله، ومن ثم لا يتبعون منهاجه، ولا يرضون حدوده وضوابطه، فان ذلك لا يضر الله شيئا، وهو لا يرضاه لهم لأنّ خضوعهم لغير منهج الله، لبشر او غيره، فيه ظلم ضار

بهم؛ ولذلك يعتب الله على من رضي بغير الحرية واستكان للظلم، فيقول: "ان الذِينَ تَوَفّاهُم الملائكةُ ظالمي أنفُسِهم قالوا فيم كُنتُم؟ قالُوا كُنا مستضعَفِين في الأرْضَ. قالُوا ألمْ تكن أرْضُ اللهِ واسِعةً فتُهاجِرُوا فيها؟" (النساء، ٩٧). ظلم النفس هو الخضوع لغير الله.

وفي هذا المعنى السابق، وفي بيان تفسير الآية التي قررت هذه الحرية الناشئة عن عبادة الله (٣). يقول الفخر الرازي (٤)، "اللهُ غنِيٌ عن العباد، وهو من صفاته الكرم، فهو الكريم، والكرم إفادة ما ينبغي لا لعوض، ومن أعطى وطلب عوضا فهو ليس بكريم، حتى المدح والثواب والتخالص عن الذمة كلها عوض؛ ولهذا يستحيل ان يفعل الله فعلا لغرض او يأمرك بفعل لغرض لذاته؛ ولأنّه لو فعل لغرض لكان حصول ذلك الغرض اولى من عدم حصوله، فحينئذ يستفيد بفعل ذلك الشئ حصول تلك الاولوية، ولو لم يفعل ذلك الفعل لما كان يحصل له تلك الاولوية، فيكون ناقصا بذاته، مستكملا بغيره وهذا محال، والله أكرم، لأنه يزيد بإحسانه بعد الجناية، ولان له الابتداء في كل كرم، وإحسانه وكرمه غير مشوب بتقصير".

ويقول: إنّ هذه القضية هي المصباح المنير الذي تسعد في ضوئه حياته وآخرته، ولذلك يحتاج الى تصديق بها ثم عمل، وجهاد لها. هذه الغاية هي ما جاء من أجلها محمد صلى الله عليه وسلم، وما جاء من اجلها النبيون جميعا، وهي واضحة جلية البرهان، وما على المعلم والمعلمين جميعا الى يوم الدين ألا ان يذكّروا الناس بها دائما دون إكراه "فذكّر فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين" (الذاريات، ٥٥). فليس من المعقول ان يكون طريق الحرية غير الحرية ذاتها. وهنا توضع القضية في سياق آخر يكشف جانبا ناصعا من جوانبها، وهو ان هذه الغاية وغاية الغايات، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، صاحب الخلق والامر، صاحب الجزاء هي لمصلحة الناس، ولخير بني آدم ولسعادة المجتمع. وهي قضية الحرية، وهي قضية تحرير الانسان من كل ما يمنع حركته او يحول دون سكنه، ويقيد عقله أو فعل يده فلا يخضع لأي شيء سوى الله؛ لأنّ خضوعه لسوى الله سيكون في مقابل شئ آخر. أما عبادة الله فهي

للإنسان ولمجتمعه ، لا لفائدة تعود على الله منه، وأنما هي حريته أولا وآخرا. وذلك مفاد قوله "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" فالخلق كله، وحواسه وعقله، وسعيه لا لشئ إلاّ لحريته، عن طريق تحرره من الخضوع لأي مخلوق، ولذلك يقول الله:"ما أريدُ منْهُم من رزْقٍ وما أريدُ أن يُطعِمُون، إنّ اللهَ هو الرزّاقُ ذُو القُوّة المتين".

ثم يستطرد الفخر الرازي مشيراً الى حرية اتخاذ هذه الحرية غاية فيقول:"وفي اختصاص الجن والانس من بين المخلوقات بالذكر- في هذه الاية - اشارة الى انهما المخلوقان اللذان لهما ارادة عاملة، فيؤمنان او يكفران، ويطيعان او يعصيان، ومن هنا وقع عليهما التكليف، وحق عليهما الحساب والجزاء بمقتضى ما يعملان "، ثم يقول: " فما يريده الله سبحانه وتعالى من العبادة هو لذات الناس، وللخير الذي يحصلونه من الحرية والايمان بواهب الحرية، وللجزاء الذي ينالونه بطاعتهم لله ، وولائهم له، فليست هذه العبادة، وهذا الولاء مما ينتفع الله سبحانه وتعالى بشئ منه،" إن اللّهَ لَغَنِيٌّ عن العَالَمِين " ( العنكبوت : ٦)...فإن اعمال خلقه خيرا او شرا لا تجلب له خيرا ولا شرا . انه سبحانه فوق المؤثرات خيرها وشرها، لأنّ التأثر عارض، يعرض للمخلوقات التي تقبل بطبيعتها الزيادة والنقصان ، اما الله سبحانه فهو الكامل الكمال المطلق الذي لا يقبل زيادة او نقصانا.

## الحرية مسؤولية فردية

هذه الحرية في نظر الاسلام مسؤولية كل فرد، ومسؤولية الجماعة نحو أفرادها، وقد عبّر الله جل جلاله عن الجانب الفردي بقوله: " ألَمْ أعْهَد إليكُم يا بَني آدم أ لا تعْبُدوا الشَيْطان إنّهُ لكُمْ عدوٌ مُبين . وأنِ اعْبُدُوني هذا صِراطٌ مستقيم . ولقد أضَلّ مِنْكُم جِبِلاً كثيراً، أفَلَم تَكُونُوا تعْقِلُون؟ ( يس : ٦٠ - ٦٢ ). فقد عهد الله الى بني آدم أن يعبدوه وحده، بمعنى اوصاهم، وغرس في فطرتهم، وزودهم بالاستعدادات، ومنها العقل، لمعرفة هذه العبادة والقيام بها، واخذ منهم موثقا على ذلك ، كما جاء في قوله تعالى: " وإذْ أخَذَ ربُّكَ مِنْ بني آدمَ مِنْ ظُهُورِهِم ذُرّيّتَهُم،

وأشْهَدَهُم على أنفسهِم ألستُ بربّكُم؟ قالوا بلى، شَهِدْنا أنْ تَقُولُوا يَومَ القيامَة إنّا كُنّا عنْ هَذَا غَافلِين، أوْ تقُولُوا إنّمَا أشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ، وكُنّا ذُرّيّةً مِنْ بَعْدِهِم أفَتُهْلِكُنَا بِما فعَلَ المُبْطِلُون" ( الاعراف: ١٧٢ - ١٧٣). وما دامت هذه الغاية مسؤولية فردية، وجب ان يتحمل الفرد مسؤوليتها، ويتحمل جهد فهمها والكشف عنها، وعناء الاستدلال عليها، والوفاء بها، ومن هنا نشأ التكليف، مؤكداً بقول الله جل وعلا، " بَلِ الإنْسَانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلو أ لْقَى مَعَاذِيرَهُ) القيامة :١٣ -١٤)

إنّ الحرية الحقيقية تعني من الناحية العقلية ان للفرد هدفه الخاص ومشكلته الخاصة، يفكر لنفسه، بمعنى انه لا يستطيع ان يوسع ما يعرفه، او يصححه، او يعرفه في البداية معرفة واعية الا اذا قام بملاحظته ملاحظه خاصة، وتأمله، وشكله في اطار ما في ضوء مقترحاته، ثم اختبر هذه المقترحات؛ فالتفكير مسأله فردية كهضم الطعام ليكون غذاء للجسم، لا يفيد الجسم الا اذا قامت اعضاؤه ذاته كالامعاء والقلب والاوعية والدموية باعداده وتمثيله وتنقيته.(٥)

وكذلك فإن ما يتعدى التفكير، من فعل ونزوع، اذا قام على اقتناع ورغبة فردية او من تلقاء النفس، فإن الفرد محاسب عليه، وإلاّ فهو ظلم؛لأنّ فرديته قد حجبت، وقد حذر الله تعالى من ذلك الظلم بقوله للرسول صلى الله عليه وسلم وللامة الاسلامية من بعده : "أفَأنْتَ تُكْرِهُ النّاسَ حتى يَكُونُوا مُؤْمِنِين" (يونس :٩٩)، فاخضاع الناس للرأي او للفعل وان كان نافعا لهم كما يراه غيرهم، حاكما او معلما، ظلم، يهدرأهم شئ تميز به الإنسان وهو حريته، حيرة الفكر، حرية الاختيار، وينجم عنه بلبلة الفكر والتكلف، وضياع الدافعية الاصيلة، وينشأ عنه الخضوع لغير الله والانقياد الخانع للآخرين.

## الحرية مسؤولية اجتماعية

أما الجانب الاجتماعي لهذه المسؤولية فقد وضّحه الله في ارسال الرسل بعامة، وفي السياق الذي جاءت فيه هذه الايات الناطقة بغاية الحرية بخاصة" وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُون" حيث جاءت هذه الايات خاتمة لسورة الذاريات التي قصت حكايات اقوام كثيرين في مجتمعات متنوعة، نعموا بنعم مادية كثيرة، ومع ذلك ظلموا انفسهم، بانتقاص حرية بعضهم بعضا، او اذلال بعضهم بعضا، بشتى انواع السلوك والمذاهب، مختلفين على الحق، فبعث الله الرسل، يعلمون اقوامهم، ويذكرونهم بمسؤولية السادة الحاكمين منهم وهذا هو الجانب الاجتماعي، حيث يتولى المجتمع بمؤسساته عامة، والمعلمين خاصة تبصير الناس بهذه الحرية، وتربيتهم عليها وفق ظروف مجتمعاتهم .

جاءت هذه السورة موجهة الحديث الى العام المطلق، الى الناس جمعيا (٦) فان شاؤا استمعوا وانتفعوا، وان شاؤا مضوا في الاعراض والنفور . القضية الاولى في الوجود التي اشارت اليها هذه السورة هي ان الله موجود، وانه استعمر الناس في الدنيا، ويبعثهم في الاخرة، ويجازيهم بأعمالهم. ومعنى الله موجود، انه لا خضوع الا له، وانه حدد منهجا لحرية البشر، والعدل، وانه سيحاسبهم على اعمالهم نحو حريتهم وحرية الآخرين. ولكن الناس مختلفون على هذه القضية، وهم في تفاعل، يؤثر بعضهم في بعض، وهنا يظهر اثر المؤسسات الاجتماعية كالمدارس والنوادي، والاسواق، والعلماء، واصحاب النفوذ والسلطان، ولذلك يقول الله تعالى في السورة ذاتها " والسَّماءِ ذاتِ الحُبكِ. إنّكُم لفِي قَولٍ مُخْتَلف، يُؤْفَكُ عَنْه مَنْ أفِك. قُتِلَ الخرّاصُون" ( الذاريات : ٧ - ١٠). فهم بين مؤمنين مصدقين بما وعدوا ، يحفظون حريتهم وحرية الاخرين، وبين مكذبين بهذا الوعد منكرين له، فيعرضون عن منهج الله، يظلمون انفسهم واخوانهم بأن يمنحوا انفسهم حقوقا، ويحرموها غيرهم قسرا او اغراء وتخويفا. اتخذ ذلك صوراً مختلفة كما تحكيه السورة، فهؤلاء قوم لوط،

يأتون الفاحشة، وهي اعتداء من بعضهم على حرية البعض الاخر بتحريف وظيفة فطرية طبيعية من الكائن الحي، وهذا فرعون يستعبد الناس ويخضعهم بقوته لمصالحه وسلطانه بغيا وعدوانا، وهؤلاء قوم هود انتقصوا حريتهم بالخضوع للأوثان واستعلى بعضهم على بعض، واخضعوهم لأهوائهم. اما ثمود فقد استضعف كبراؤهم ضعفاءهم. وقوم نوح عبدوا اصنامهم. كان سادتهم او كبراؤهم، وذووا النفوذ منهم، في كل ذلك يخرصون الاشياء " يعني بقدرونها بحدس وظن، ودون استناد الى علم محقق لان الواحد منهم يخرص الشيء، كما يقول عبدالكريم الخطيب، يعني يصفه للآخرين او يشرحه دون تحري الصدق واليقين، لانه يكون في الغالب مغمورا في شدة تطغى على مشاعره، وتستولي على تفكيره، شدة من جهل او انفعال، او انبهار بحدث، ويكون ايضا ساهيا، غافلاً، لا يتعقل، ولا يتدبر(٧)، فيضلل الاخرين ويسبلهم حريتهم. وهذا ما اشار اليه الله تعالى في السورة نفسها مبينا ما يجري في التفاعل الاجتماعي من السادة المهيمنين على المؤسسات بقوله : " قُتِلَ الخرّاصُون. الذين هُم في غَمْرَةٍ ساهون يسألون أيّان يومُ الدِّين (الذاريات: ١٠-١٢). وقد يسوقهم كل ذلك الى الغفلة عن المحاسبة الذاتية او من غيرهم عنادا واستكبارا بما في ايديهم، او في انفسهم من نعمة الله فيستعبدون الناس" وأضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وما هَدَى" (طه :٧٩) وقليل منهم من يفيق. وهناك فريق آخر من اصحاب النفوذ والسلطان مصدق بالقضيّة الاولى، قضية الحرية، فهم ايضا في تفاعل اجتماعي ، وسماهم الله بالمتقين، عرفوا الحق، فشكروا، وقدموا العمل النافع لانفسهم وللناس، وشاركوهم اموالهم وافكارهم عن طواعية، يطلبون العلم والمعرفة بالبحث الجاد والنظر المتفحص، لا يتبعون الاهواء، ويقدمون العلم الى الناس بصدق، ولسان حالهم يقول" فاتّقُوا اللّه واطيعون. وما أسألُكُم عليه مِنّ أجْرٍ، إنْ اجْرِيَ إلاّ على رَبِّ العَالَمِين "(الشعراء:١٤٤ - ١٤٥).

هذه الحرية اتجاه عقلي اكثر من ان تكون دالة على عدم التقيد الخارجي للحركات ، فالعقل مصدر الحركة، وهكذا تترتب على كل فكرة حركة، والاّ كانت هذه

الفكره شيئا غير موجود في الواقع، وبالتالي ترتد الحركة الخارجية الواعية الى العقل رجعا يؤثر في نشاطه الفكري. ولا تنمو الحرية العقلية بدون السماح بحركات الاستكشاف والتجريب والتطبيق ... الخ. وهذه مسؤولية المجتمع يوفرها لافراده ، ومن هنا تنشأ التنوعات الفردية. وعلى المجتمع ان يستخدم هذه التنوعات في وحدة اجتماعية متناغمة. وهكذا حدد الاسلام طريق هذه الحرية بالاستبصار العقلي، والكشف، والملاحظه، والتجريب المؤدي اليها بدعوته في مواضع كثيرة من القرآن الى ذلك، ومنها ما جاء في سورة الذريات التي اشرنا اليها توا، بعد ان بين من يخرص ويضل، ومن يصدق ويهدي للخير، وهو قوله:"وفي الأرْضِ آياتٌ للمُوقنين. وفي أنْفُسكُم أفَلاَ تُبْصرُون" ( الذاريات : ٢٠ - ٢١)، وفي سورة البقرة" لا إكْراهَ في الدِّين قدْ تَبيَّنَ الرُّشْدُ من الغَيِّ، فمن يَكْفُر بالطاغوت ويؤمنْ بالله فقد استَمْسَكَ بالعروةِ الوُثْقَى، لا انفصامَ لها، والله سميع عليم " ( البقرة : ٢٥٦ ). وقوله " أوَلَمْ ينظروا في ملكوتِ السموات والأرضِ، وما خلق اللّهُ من شئ، وأنْ عسى أن يكونَ قد اقْتَربَ أجلُهُم، فبأي حديثٍ بَعْدَهُ يؤمنون : ( الاعراف : ١٨٥) وقوله " افلا ينظرون الى الإبلِ كَيْفَ خُلقَتْ، والى السماء كيف رُفعَت، والى الجبال كيف نُصبت والى الأرضِ كيف سُطِحَت. فذكِّر انما أنتَ مُذكِّر لَسْتَ عَليْهِم بمُسَيْطر " ( الغاشية ١٧ - ٢٢) فهذه طريق الحرية الى غاية حرة، وهي رفض كل القيود الا ان يكون الانسان سيد نفسه بالعلم.

هنا تجدر الاشارة الى ان الله قدم الكشف العقلي والاكتشاف والاقتناع عن رؤية طريقا لهذه الحرية، وأحله محل المذهب، وإثبات العقائد الموروثة او المتلقاة والبرهنة عليها، دون نظر وباستخدام القهر والتخويف، او بتشجيع التقليد الأعمى، او بالسير على سنن الآباء دون تفكير وتعقل، ولذلك ذكر الله جل شأنه في مواضيع كثيرة ما ينفر من المذهبية اللاعقلية، والاتباع الأعمى، منها قوله تعالى: "ولا تَقْفُ ما ليسَ لكَ به علْمٌ، انَّ السمعَ والبَصَرَ والفُؤادَ كُلُّ اولئكَ كان عنه مسؤولا" (الإسراء: ٣٦)، وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليّ وسلم:" لا يكن احدكم امعة، يقول إن

احسن الناس أحسنت، وإن اساءوا أسأت" ، فهو الانسان يرى هذه الغاية في كل ما حوله، وما فوقه وما تحته، وفي نفسه، ولذلك يقول الله تعالى في سورة الذاريات ايضا التي دعت الى هذه الحرية"، فَوَرَبِّ السَّمَاءِ والأرضِ إِنَّهُ لَحَقٌ مِثْلَما أَنَّكُم تَنْطِقُون" الذاريات: ٢٣)، فهي قضية فردية واضحه، واقعة وقوعاً مماثلا لوجود الانسان نفسه، لا تحتاج الي قهر او قسر. وقد اختار الله النطق للتعريف بصدق القضية على المستوى الفردي؛ لأنّ النطق من الفرد، وهو يدل على ان وراءه انسانا ذا حس وادراك، وانه اذا غابت عنه المحسات والمدركات حوله، فلن يغيب عنه الاحساس بوجوده هو، وادراك انه موجود (٨).

الحرية الحقيقية نتاج طرح التقليد والتدبر في العادات المألوفه، والنظر في المعايير، فاذا ما سيطرت علي المجتمع عادات عرفية، ثم طغت، او قدست كبتت هذه الحرية او اضعفتها، وليس ذلك لمصلحة الجماعة، ولذلك يقول الله جل وعلا ردا على الكفار الذين قالوا " حَسْبُنا ما وجدنا عليه آباءنا " بقوله" أولَو كان آباؤُهُم لا يعلمون شيئاً ولا يَهْتَدُون" ( المائدة : ١٠٤).

اذن فالحرية التي ابتغاها الاسلام للانسان غاية، هي ان ينطلق تفكيره وعمله وفعله وقوله في اطار منهج الله، غير خاضع لأحد، متعاونا في ذلك مع رفاقه، على ان يحرس هذا الانطلاق بمزيد من الحرية، نابع من الايمان بأن مصدر قوته وقدرته على التفكير والحركة والسكون هو الله ، فلا يخشى أحدا. ويفسر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله لابن عباس وهو صبي صغير: " يا غلام ألا أُعلمك كلمات. احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، اذا سألت فاسأل الله، واذا استعنت فاستعن بالله، واعلم ان الأمة لو اجتمعت جميعا على ان ينفعوك بشئ لم ينفعوك الا بشئ قد كتبه الله لك، وان اجتمعت على ان يضروك بشئ، ما ضروك الا بشئ قد كتبه الله عليك. جفت الاقلام وطويت الصحف(٩). " وتأكد ذلك بما رواه ابن عباس ايضا حين قال : " قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم " ما شاء الله وشئت يا رسول الله " فقال " أجعلتني لله ندا؟ ، قل : ما شاء الله وحده" رواه ابن مردويه واخرجه

النسائي وابن ماجه. وعلق عليه ابن كثير في تفسيره بقوله" وهذا كله صيانة لجانب التوحيد"(١٠) ، وقال الزجاج ايضا في قوله تعالى في سورة الفاتحة" اياك نعبد واياك نستعين " اي اياك نطيع الطاعة التي نخضع معها". وأورد ابن كثير في ذلك رأى ابن عباس معززا بقوله" هذا يعني" اياك نوحد ونخاف ونرجوك يا ربنا لا غيرك(١١)" ثم قال" والعبادة في الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبه والخضوع والخوف ... وهي تبرؤ من الشرك وتبرؤ من الحول والقوة".

## الحرية غاية عالمية

هذه الحرية غاية لتربية الناس جميعا، وليست قاصرة على المسلمين، وفق قوله الله تعالى " يا أيُّها النَّاسُ اعبُدُوا ربَّكُم الذي خلَقكُم والذينَ مِنْ قَبْلِكُم لعلَّكُم تتَّقُون " ( البقرة : ٢١ ) ويفسر مجمع البحوث الاسلامية تلك الآية بقوله " كلمة الناس عامة تشمل امة الدعوة المكلفين : من آمن منهم ومن لم يؤمن ، من الموجودين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن سيوجد بعدهم الى يوم القيامة، لعموم الرسالة المحمدية، ويكون الامر بقوله اعبدوا ربكم بالنسبة للمؤمنين، بمعنى داوموا على عبادته، وبالنسبة الى غيرهم، بمعنى حصلوا العبادة وأنشئوها"(١٢).

العبادة المطلوبة هي الطاعة المبنية على حب المعبود، لا يشاركه فيها غيره، لانفراده، بالخلق والربوبية وكامل الانعام، مع القدرة الشامله وعظيم السلطان. وليست العبادة مقصورة على نحو الصلاة والصوم والزكاة، بل تشمل كل عمل يعمل لنفع الناس والحيوانات اذا اريد به وجه الله .

ويقول ابن كثير " هذه العبادة فيها النصف لكل انسان مهما تباينت عقيدته ولونه ومذهبه، والى ذلك يدعو الرسول صلى الله عليه وسلم بقول الله تعالى : "قل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ، الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا

مسلمون" ( ال عمران :٥٦ ) ثم يفسر الاية قائلا : هذه الكمة السواء عدل ونصف نستوى نحن وأنتم فيها"(١٣). فنخضع جميعا لذات الله، ولا يسجد بعضنا لبعض، اى لا يخضع بعضنا لهوى البعض الآخر. انما الله هو كافل لحرية كل منا بمنهاجه.

هذه الكلمة ذاتها في الاية ذاتها كانت صلب خطاب النبي صلى الله عليه وسلم الى قيصر الروم، ونصه" بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى. اما بعد، فأسلم تسلم، واسلم يُؤْتِكَ الله أجرك مرتين. فإن توليت فانما عليك إثْمُ الاريسيين، ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألاّ نعبدألاّ الله ، ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله ، فإنْ تَوَلوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون"(١٤).

هذه الحرية تتطلب من القائمين على منظومة التربية ان ينموا وسائل مراجعة العادات والاعراف، وتعديل ما درج الناس على تقبله وتنقيته من الشوائب، واحيائه، ولا يكون ذلك الا بتشجيع الافراد على النظر، والتفكير الحر، حيث يكون العقل، عقل كل فرد مستقلا، فيعمل كل منهم اصيلا، له اهتماماته، تتكامل مع اهتمامات الاخرين في اطار التوجيه الاجتماعي، ليعى المربون الفصل بين حرية الفرد، وسيطرة الاخرين، او بين الدراسة والتجريب، واتخاذ القرار من جانب، والحكم العام من جانب آخر، وان يتذكر المربون ان هذه الحرية اتجاه فكري عقلي قبل ان تكون حرية حركة او انتقال، كما آسلفنا، وهي بذلك لا تنموا الا بالسماح للعقل الفرد ان يجرب ، ويستكشف، ويطبق، ويتساءل ويجيب، ويقرر ... الخ .

وهنا يحذر الاسلام من فرض نمطية معينة على التفكير، بل يوجب على الحاكم، وعلى المعلم ، وعلى كل عالم، ان يلفت نظر الافراد في المجتمع، وفي حجرة الدراسة الى ابدال هذه النمطية الشائعة، ليحل محلها الاتساق بين الناس، وان يكون التشابه بينهم بدلا من التماثل، وان ينشأ عن ذلك التآلف ووحدة المجتمع، وليتذكر هؤلاء قوله تعالى " قُلْ كُلٌّ يعملُ على شاكِلَتِهِ، فربُّكُم أعْلَمُ بمن هو أهْدى سبيلاً" (الاسراء :٨٤ )

## غايات وسلية*

ذكرنا ان الحرية هي غاية غايات التربية في القرآن ، فهي خير في حد ذاتها، وقلنا ان لها جانبا فرديا، وآخر اجتماعيا، الجانب الفردي فيها يعني ان لكل فرد غرضه الخاص، يفكر لنفسه، ولا يستطيع ان يوسع ما يعرفه او يصححه او يعرفه بداية معرفة واعية الا اذا قام بملاحظته ملاحظة خاصة، وتأمله، ثم شكله في اطار ما، في ضوء مقترحاته، واختبر هذه المقترحات. فالتفكير مسألة فردية كهضم الطعام، ولا يفيد الجسم الا اذا قامت اعضاؤه ذاته-الامعاء، والقلب، والاوعية الدموية- باعداده وتمثيله وتنقيته. " فبشر عباد، الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه . اولئك الذين هداهم الله، وأولئك هم اولو الالباب"، ويفسره قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: لا يكن أحدكم إمعّة، يقول إن أحسن الناس أحسنت، وإن اساؤا أسأت" . وهذا منبع الاصالة، ومنبع المسؤولية.

هذا الجانب الفردي يضع للتربية غايات تمكن الفرد من الحرية، فهو لا يستطيع ان يحقق هذه الحرية الا اذا تحققت هذه الغايات المُمَكِّنةُ او نسميها غايات وسلية. وهي غايات الحفاظ على مقومات الحياة وضروراتها وهي غايات حفظ النفس والعقل، وما يستلزمه ذلك من تنمية استعدادات الانسان الفطرية مثل استعداده للعمل والتكسب، واستعداده لجلب المصالح ودرء المفاسد.

اما الجانب الاجتماعي فيضع للتربية غايات اساسها الاستعداد الفطري ايضا الذي وضعه الله في الانسان ليعيش في جماعات، يتعارف ويتواصل " يا أيُّها النَّاسُ إنّا خَلَقْنَاكُم من ذكَرٍ وانْثَى وجَعَلْناكُم شُعوباً وقبائِلَ لِتَعارَفُوا إنّ أكرَمَكُم عِنْدَ اللّه أتقاكم.إنّ الله عليم خبير" ( الحجرات : ١٣) ومن ثم كان من الضرورى ان تهدف التربية الى تنظيم هذا التجمع في تفارقه وتواصله بما يحفظ لأفراده الحرية، وللمجتمع نفسه السلامة والحرية أيضا، واستلزم ذلك تحديد غايات رئيسية يشرحها

---

*- الغايات الوسلية هي غايات التربية التي تؤدى الى تحقيق غاية الحرية فهي وسيلة اليها.

مضمون التوجيه الالهي في الآيات التالية: كُنْتُم خَيْرَ أمّةٍ أُخْرِجتْ للنّاس تَأمُرون بالمعروف وتَنْهَوْن عن المنْكَر وتؤمنُون باللّه" ( آل عمران: ١١٠) وآيات سورة الماعون" أرأيت الذي يُكَذّبُ بالدّين؟ فذلك الذي يَدُعُّ اليتيم، ولا يَحُضُّ على طعامِ المِسْكِين، فويلٌ للمُصَلّين، الذين هُم عن صَلاتِهِمْ سَاهونَ،

الذين هم يُراءُونَ ويَمْنَعُون الماعون( الماعون:١-٥) ويتوجها غاية اجتماعية هي بناء منظومة قيمية تحكم ذلك كله، وهي مضمون الآية: " إنّ اللّه يأمُرُ بالعَدْلِ والإحسانِ وايتاءِ ذي القُرْبَى، وينْهَى عن الفَحْشَاء والمنْكَرِ والبَغْي. يَعِظُكُم لعلّكُم تذكرون. وأوْفوا بَعَهْدِ اللّه اذا عاهَدْتم، ولا تنقُضُوا الأيْمان بعد توكيدها، وقد جعلتُمُ اللّهَ عليْكُمْ كفيلا،إنّ اللّه يعلَمُ ما تفعلون. ولا تكونُوا كالتي نَقَضَتْ غَزْلَها منْ بعد قوةٍ أنْكاثاً تتّخذُون أيْمانَكُم دَخَلاً بينَكُم أنْ تكونَ أمّةٌ هي أرْبَى مِنْ أمّةٍ، إنّمَا يَبْلُوكُم اللّه به، ولَيُبَيّنَنّ لكُمْ يومَ القيامةِ ما كُنْتُم فيه تختلفون. " (النحل :٩٠ - ٩٢).

## الغايات الفردية:

تقوم الغايات الفردية على ثلاثة أسُس: الاول هو الوظيفة العامة التي رسمها القرآن للأنسان، وهي أن يكون خليفة في الارض، تنفيذا لقوله تعالى للملائكة: "إني جاعلٌ في الأرْضِ خليفةً"( البقرة : ٣٠ ) ، ثم قوله في سورة الانعام توضيحا لهذه الوظيفة وتأكيدا،" وهو الذي جَعَلَكُم خَلائفَ الأرْض وَرَفَعَ بَعْضَكُم فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ، لِيَبْلُوكُم في ما آتاكم، إنّ ربّك سريعُ العقابِ وإنّهُ لَغَفُورٌ رَحِيم" (الانعام:١٦٥). ومعناها الاعم هو ان الله استعمر الناس في الأرْض، وجعلهم مسيطرين على ما فيها، وسخر لهم كلّ ما فيها، لينظر كيف يعملون العمل الصالح النافع لهم جميعا، ويختبرهم فيها، بعقولهم ويظهرون حكمه وسننه.

أما الثاني فهو الاستعداد للعمل واعمار الارض بكل معاني الاعمار، وما يستلزمه ذلك من قدرات، وذلك وفق قوله تعالى في اول سورة نزلت من القرآن."اقرأ باسْمِ ربِّكَ الذي خَلَقَ، خَلَقَ الإنسانَ مِنْ عَلَقٍ، إقرأ وَرَبُّكَ الأكْرم، الذي عَلّمَ بالقَلَم، عَلّمَ الإنسَانَ

مَا لمْ يَعْلَم" (العلق: ١-٥)، ثم قوله في سورة الرحمن:" الرَّحْمَنُ عَلَّمَ القُرآنَ. خَلَقَ الإنْسَانَ. عَلَّمَهُ البَيَان" (الرحمن ١-٤)، ثم قوله في سورة الشمس "ونَفْسٍ وما سَوَّاهَا. فألهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْوَاها. قد أفْلَحَ من زكَّاهَا. وقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا. ( الشمس ٧-١٠).

وقد اشارت الى القدرات غايات الوظيفه التي حددها سيدنا ابراهيم عليه السلام واسماعيل للرسول الخاتم الذي دعوا ربهما ان يبعثه ليعلم الأمّة المسلمة حيث قالا" ربَّنَا وابْعَثْ فيهْ رَسولاً منْهم، يَتْلو عَلَيْهم آياتِكَ، وُيعَلِّمُهُم الكتابَ والحكمة، ويُزكِّيهِم، إنَّك أنْتَ العَزيزُ الحكِيمُ" ( البقرة : ١٢٩).

أما الثالث فهو ما اقتضاه وجود الانسان على الارض، من حفظ حياته، وضمان وجوده، فهو لابد ان يأكل ويشرب ويلبس، ويسكن ليعيش، ويأمن على حياته، فليس هناك من يوفر له ذلك بعد ان هبط من الجنة حيث قال الله " إنَّ لَكَ ألاَّ تَجوعَ فيها ولا تَعْرَى. وأنَّكَ لا تَظْمأ فيها ولا تَضْحَى" (طه: ١١٨- ١١٩ ). ثم في سورة قريش " فلْيَعْبُدوا رَبَّ هذا البَيْتِ الذي أطْعَمَهُم مِنْ جُوعٍ وآمَنَهُم من خَوْف " (قريش : ٣ - ٤) فمن يوفر له الطعام والشراب والمسكن والأمن إنْ لم يعمل بنفسه؟

أ- غاية تعلم الكتابة والحكمة : " فان نزول اول سورة العلق تمهيد للوحي المجمل والمفصل، خاص بحال النبي صلى اله عليه وسلم، واعلام له بأنه يكون - وهو أمي- قارئاً بعناية الله تعالى، ومخرجا للأميين من أميتهم الى العلم بالقلم، أي الكتابة، وفي ذلك استجابة لدعوة ابراهيم عليه السلام -التي ذكرناها توا- " ربنا وابعث فيهم رسولا منهم، يتلو عليهم آياتك، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويزكيهم " (البقره: ١٢٩) ، وقد فسر أغلب المفسرين، ومنهم الامام محمد عبده " الكتاب بالكتابة (١٥) ثم قال الامام: هذا الدين اضطرهم الى تعلم الكتابة بالقلم وأخرجهم من الامية، لأنّه دين حث على المدنية وسياسة الامم، وكان اول حاجاتهم الى الكتابة وجوب كتابة القرآن . وقد اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم كتبة للوحي، وكتبوا له

كتبا، دعا بها الملوك والرؤساء الى الاسلام، وكان يأمرهم بتعلم الكتابة".

ولا يقتصر تعليم الكتابة على الرسم بالقلم ، فالمعنى الذي اشار اليه القرآن أوسعُ من ذلك، ولذلك يستطرد الامام قائلا : قد تطلق الكتابة على العلم، ومنه قوله تعالى : " أمْ عِنْدَهُمُ الغَيْبُ فيهم يَكتُبُون" ( الطور :٤١) أي يعلمون، وقول النبي صلى الله عليه وسلم في كتابه لأهل اليمن حين بعث اليهم معاذا بن جبل "إنِّي بعثت إليكم كاتبا" . قال ابن الاثير في غريب الحديث أراد عالما، سُمِي بذلك لأن الغالب على من كان يُعلِّم الكتابة ان عنده علما ومعرفة"(١٦).

هذه الغاية اوسع واشمل ايضا من مجرد تعلم الرسم بالقلم، وانما تشمل ايضا تعليم الانسان البيان، فقد اوتي الانسان قدرة التعلم ومنها قدرة البيان" الرَّحْمن. عَلَّم القرآنَ. خَلَقَ الإنْسانَ عَلَّمَهُ البيان" ( الرحمن:١-٤)، وفي ذلك تقول بنت الشاطئ ": وكل استعمال للمادّة (ب ي ن ) بمختلف صيغها، يدل دلالة صريحة على الوضوح والابانة الكاشفة، والبينة الحجة الواضحة الملزمة. ومن هنا يختلف البيان عن مجرد النطق الصوتي(١٧)، فالبيان قدرة للإنسان، اما النطق فهو عام، فالطير او الحيوان ينطق، يقول الراغب الاصفهاني في مفردات القرآن ، النطق الاصوات المقطعة يظهرها اللسان، وتعيها الاذان، ولا يقال للحيوان ناطق الا مقيدا او على التشبيه." وليس مجرد النطق الصوتي مناط انسانية الانسان(١٨)، فليست آلية جهاز النطق او السمع او البصر هي التي تميز الانسان، بل بيان الانسان في منطقه، ووعيه في سمعه، وتميزه وهدايته في سمعه وبصره هي ما تميز به ، انظر الى قوله تعالى" لهم قُلُوبٌ لا يَفْقَهونَ بها وَلَهُمْ أعْيُنٌ لا يُبْصرُون بها وَلَهُمْ آذانٌ لا يسْمَعُون بها أولئكَ كالأنْعامِ بَلْ هُمْ أضَلُّ، أولئك هم الغافلون" (الاعراف :١٧٩). "وَمَثَلُ الذينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الذي يَنْعِقُ بما لا يَسْمَعُ إلاّ دُعاءً ونِداءً، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فهم لا يعقِلُون" (البقره:١٧١). ويشمل ذلك البيان انفعال الانسان بالبيان، وتذوقه اياه، ووسيلته الى التعلم ومواصلة التفكير"(١٩).

تاريخ الدعوة النبوية منذ بدء الرسالة يؤكد هذه الغاية وجوباً على كل

مسلم، وحقا له على الدولة، فقد ذكر ابو الحسن بن محمد (٢٠) المعلمين في عهد النبوة، وذكر منهم عبادة بن الصامت رضى الله عنه، كان يعلم أهل الصُّفَّة القرآنَ، وهو احد النقباء الاثنى عشر، وقد أخرج ابو داود عن عبادة بن الصامت قوله: علمت ناسا من أهل الصُّفَّة الكتاب والقرآن، فأهدى الى رجل منهم قوسا، فقلت: ليست لي، فقال: ارم عليها في سبيل الله، فقلت: لآتين رسول الله صلى عليه وسلم، فلأسألنّه، فأتيت فقلت يا رسول الله: رجل أهدى إلي قوساً ممن كنت أعلّمه الكتاب والقرآن، وليست بمال وأرمي عليها في سبيل الله؟ قال ان كنت تُحبُّ ان تُطوّق طوقا من نار فاقبلها"(٢١). وفي هذا دليل على ان تعليم الكتاب غير تعليم القرآن، وان التعليم للناس حق بالمجان.

وكذلك كان من المعلمين مصعب بن عمير: لما انصرف القوم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم- يعني الذين بايعوه في العقبة الاولى- بعث معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبدمناف، وأمره ان يقرءهم القرآن، ويعلمهم الاسلام، ويفقههم في الدين وكان يسمى المقرئ بالمدينه.

ومنهم معاذ بن جبل: استخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم بن اسيد على مكه، وخلف معه معاذ بن جبل، يفقه الناس في الدين ويعلمهم القرآن.

ومنهم عمرو بن حزم بن زيد بن لوذان الخزرجي البخاري، استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على نجران ليفقههم في الدين ويعلمهم القرآن.

وذكر ابوعمر بن عبد البر في الاستيعاب من المعلمين عبدالله بن سعيد بن العاص بن امية بن عبدشمس، وقد كان اسمه في الجاهلية: الحكم، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدالله، وأمره ان يعلم الكتاب بالمدينه وكان محسنا(٢٢).

يؤكد تلك الغاية التربوية حدث عظيم في تاريخ المسلمين، وهو غزوة بدر الكبرى، حيث كان في الاسرى يوم بدر من يكتب، ولم يكن فى الانصار احد يحسن الكتابة، فكان من الاسرى من لا مال له، فيقبل منه ان يعلم عشرة من الغلمان

الكتابة، ويخلي سبيله، فيومئذ تعلم الكتابة زيد بن ثابت في جماعة من الغلمان(٢٣). وكذلك كانت الشفاء بنت عبدالله، ام سليمان بن ابي حتمة تعلم النساء، قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: " علمي حفصة رقية النملة كما علمتها الكتاب"(٢٤) وفي رواية لأبي داود كما علمتها الكتابة، وفي الحديث: علمت رجلا من اهل الصُّفَّة القرآن والكتاب، يعني به الخط والهجاء.(٢٥)

يربط الشيخ عبدالحليم محمود(٢٦) بين غاية تعليم الكتابة والحكمة وبين الحرية غاية الغايات بقوله،" هذه الحريه وضحت ايضا في اول ما نزل على النبي صلى اله عليه وسلم من القرآن، وهي الآية" إقْرأْ بِاسْمِ ربِّكَ الذي خلق" هذه الاية تنص على ان القراءه- وهي هنا رمز للتعليم - لا تكون باسم وزير ، ولا أمير، ولا با سم منفعه شخصية، ولا باسم مصلحة اقليمية، ولا باسم غاية مادية ايا كانت، ولا باسم وطن او بيئة، وانما هي باسم الله . واذا كانت باسم الله فانها تفيد الشخص باعتباره فردا، وتفيد المجتمع الخاص الذي نسميه وطنا، وتفيد المجتمع الاسلامي العام. بل تفيد الانسانية جمعاء ... واذا ما تجردت التربية لله تعالى، وكان هدفها الاول والاخير هو الله مصدر الخير والنور، والذي وهب الانسان الحياة، ووسائل هذه الحياة، كانت خيرا له، وكانت نورا في جميع الارجاء وفي جميع الازمان.

هي ايضا " اقرأ باسم ربك " يعني باسم المربي الذي انزل دستور التربية، وهو القرآن، التربية التي قررها من خلق الانسان، واحاط علما بهذا الانسان. هذه التربية ليست من كائن لا صلة له بالمخلوق، وانما هي ممن خلق، واحاط بدقائق الخلق، وعرف ما تحتاج اليه مخلوقاته، وعرف الضار والنافع، وعرف الخير والشر، فتربيته اذن قيادة على علم، وهدايةعلى بصيرة، وهي من أجْل ذلك كله تربية خالدة الغاية، لا تختلف باختلاف الازمنه والامكنة؛ لأنّ الإنسان هو الإنسان أينما وجد وأينما كان، لم يتبدل خلقا بخلق، ولا تركيبا بتركيب(٢٧) اما تعليم الحكمة باعتباره هدفا تربويا، فيدفعنا لتحديد معنى الحكمة لنكون على بصيرة فيما نفعل ونحقق الغاية على وجه الصواب.

الحكمة هي العلم المقترن بأسرار الاحكام ومنافعها الباعث على العمل- هكذا قال الامام محمد عبده(٢٨)- ثم قال ومن معانيها أيضا أنّ الحكمة العلمُ وفقهُ القلبِ، بدليل قول الله تعالى في شأن سيدنا يحيى عليه السلام" وآتيناه الحكم صبيا" (مريم: ١٢)، والحكمة بمعنى فهم الكتاب، ومعرفة ما فيه من الاحكام. والحكم يطلق في اصل اللغة على حكم العقل باثبات شئ بشئ، او نفيه عنه قطعا، وهو علم اليقين، وهو يستلزم فقه العلم وفهم سره وحكمته. والمعنى الاصلي لهذه المادة المنع. قال في اللسان: والعرب تقول حَكَمْتُ وأحْكَمْتُ وحَكّمت بالتشديد بمعنى منعت ورددت، ومن هنا قيل للحاكم بين الناس حاكم، لأنّه يمنع الظالم من الظلم وأقول الحكم بمعنى العلم والجزم وفقه الامور- وهو حكمتها- فيه معنى المنع، وهو منع الاحتمالات والظنون، فمن ليس له حكم جازم في المسأله لا يكون عالما بها. وبذلكِ يكون الحكم هو العلم الصحيح والفقه في أمور الدين وشئون الاصلاح ولعل المراد به ملكة الحكم الصحيح في الأمور.

ثم قال في موضع آخر(٢٩)" أمّا الحكمة فقد قيل هي معرفة سر كل شئ وفائدته، والمراد بها أسرار الاحكام الدينية والشرائع ومقاصدها، والحكمة مأخودة من الحَكَمَة- بالتحريك - وهي ما أحاط بحنكي الفرس من اللجام وفيها العذاران، وفي ذلك معنى ما يضبط به الشئ، ومن ذلك إحكام الامر واتقانه- ومن هنا يبدو معنى قوله تعالى "ومَن يُؤتَى الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً" ( البقره :٢٦٩).

أما ابو العباس القلقشندى(٣٠) فقد قال: أما الحكمة فهي اسرار الامور وفقه الاحكام، وبيان المصلحة والطريق الى العمل بها، وذلك الفقه الذي يبعث على العمل.

او هي العمل الذي يوصل الى فقه الاحكام وطرق الاستدلال ومعرفة الحقائق ببراهينها، لأن هذه الطريقة هي طريقة القرآن وسنته في العقائد وكذا في الاداب، والعبادات.

وقال الفخر الرازي(٣١) " والحكمة اصلا هي الاصابة في القول والعمل، ووضع كل شئ موضعه وقيل هي السنة، وذلك قول اصحاب الشافعي، وسياق الاية- يقصد الاية ١٢٩ في سورة البقرة- يدل على ان الحكمة شئ خارج عن الكتاب، والحكمة هي الفصل بين الحق والباصل في كل امور الحياة".

اما ابو حامد الغزالي (٣٢) فيقول: الغاية من العلم كله، او من العلوم كلها، هي الحكمة- تعلم الحكمة. ثم يقول " والحكمة هي اكتساب المهارة الفكرية التي تؤدي الى ادراك الفرق بين الحق والباطل في المفاهيم، وبين الصدق والكذب في المقال، وبين الجميل والقبيح في الافعال، بحيث لا يلتبس على الفرد شئ من ذلك.

ويقول محمد الطاهر بن عاشور(٣٣) شيخ تونس:" الحكم هو الحكمة اي العلم بطرق الخير ودفع الشر، قال تعالى في شأن يحيى عليه السلام" وآتيناه الحكم صبيا"، ولم يكن يحيى حاكما اي قاضيا.

وقد اطلقت الحكمة على بعض نصوص الكتاب من العقائد والفضائل والاحكام الايجابية والسلبية، وبخاصة ما يتصل بسلوك الانسان في الحياة- افعل ولا تفعل- ومن ذلك قوله تعالى بعد ان قدم أنواعا من السلوك -بداية الجزء الثالث من القرآن، بالاية ٢٥٣ من سورة البقرة، وحتى الاية ٢٦٠ من السورة نفسها- خاصة بالعبادة والانفاق - يؤتى الحكمة من يشاء، ومن يُؤْتَ الحكمة فقد أُوتِي خيراً كثيرا، وما يَذَّكَّرُ إلا أولُو الألباب" البقرة٢٦٩). ومنه ايضا الوصايا المقرونة بعلل الامور والنهي التي جاءت في موضوعات ذكرتها سورة الاسراء، ثم ختمت بقوله تعالى " ذلك مما أَوْحَى إليْكَ رَبّكَ من الحكمة"(الاسراء:٢٩).

وقد اطلقت على سنة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في اصحابه بمعنى ما علمه لاصحابه، بحيث اصبحوا على هدى وبصيره بما يفعلون وبما لا يفعلون. ولذلك فنحن نميل الى القول بان تعليم الحكمة هو تعليم الفرد مهارة اتخاذ القرار المناسب في الموضوع ليعمل عملا، تعليم مهارة ان يختار من البدائل بعد ان يمحص

ويقلب الامر من جميع وجوهه، لأنّ الحرية تتطلب قدرتين : القدرة على الاختيار والقدرة على تنفيذ ما تختار، والا فلست حرا. القدرة الاولى أداتها العقل، وبغير العقل لا يتخذ الفرد قرارا، ولا يوازن بين البدائل ، ومن هنا كان هدفا جديراً بالعناية ان نعلم الناس كيف يفكرون فيما يتعلمون. القدره الثانية أداتها استعدادات الانسان المادية، وقوة جسمه، وعضلاته، وحسه، وقوة نفسه، واستعداداته النفسية من صمود، وعزم ، والجاز، ... ولذلك جدير بالتربية أن تمهد للمتعلمين فرص تنمية هذه الاستعدادات، استعداد الاختيار واتخاذ القرار، ثم استعداد العزم، والصبر على التنفيذ.والقدرتان نسبيتان يكتسبهما الفرد بالتعلم، وكل منا قادر على فعل شئ بمقياس.

ومن هنا تكون الحكمة ايضا هي ان يتعلم الفرد كيف يوظف ما يتعلم لنفسه وللناس، ففي حديث عبادة رضي الله عنه، ما ينبه المربى الى ذلك حيث يقول النبي صلى الله عليه وسلم(٣٤) " يوشك ان يرى الرجل من ثبج المسلمين قرأ القرآن على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ، فأعاده، وابدأه، ولا يحور فيكم الاكما يحور صاحب الحمار الميت" اي لا يرجع فيكم بخير، ولا ينتفع بما حفظة من القرآن كما لا ينتفع بالحمار الميت صاحبه.

## غاية التزكية والتقويم الذاتي:

هدف التربية هو نمو الفرد، بمعنى اتاحة الفرص التي تحفظ نفسه وتزيد من عقله وصحته وماله، ووضع ضوابط هذا النمو من نفسه ومن حوله، لينمو النمو المتكامل الذي لا يشوبه اعواجاج، ولا يوقفه انحراف ولا تضارب، لأن التربية في الاسلام عملية تزكية في مجملها، لقوله تعالى : " قدأفلحَ مَـنْ زكّاهـا (الشمس :٩)، والتزكية نماء متواصل، بلا نهاية، يبدأ بالوجود في الحياة، ولا يتوقف الا بالموت.

مادة" زك أ" تعني النماء، زكا الزرع يزكو زكاء اي نما وكل شئ يزداد وينمو، فهو يزكو زكاء، والزكاة الصلاح"(٣٥) وهكذا التربية في الاسلام تنمية ونماء وهي انبات الفرد، كإنبات النبات، لقوله تعالى في شأن السيدة مريم " فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ، وأَنْبَتَها نَبَاتاً حَسَناً، وكَفَّلَها زَكَرِيّا". (ال عمران : ٣٧). وهنا نعبر عن التربية من جانب المعلم، انها رعاية تكفل للفرد ان ينمو نموا كاملا، يحفظ له حياته، وعقله، ويكسبه مهارات الحياة، ليجمع له ما في العبارات الثلاث الاتية:" أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فآوى، وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى، وَوَجَدَكَ عائِلاً فأغْنَى" ( الضحى: ٦-٨) وهنا يبدو ايضا المعنى العملي للتربية، فهي تؤوى المتعلم، تحفظ جسمه وعقله، لا يخيفه ضعف،فيضيع كما يضيع اليتيم بغير ولي، ولا يضيعه ضلال، وانما يحميه عقل راجح وميزان دقيق، فيلعمه المعلم الوزن، والحكم، والرشد، "ولَقَدْ آتَيْنا إبرايهمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ، وكُنّا بِهِ عَالِمِين" ( الانبياء:٥١)، ويغنيه عن السؤال، فيوفر له معاشا، يعلمه الاكتساب، ويكسبه القدرة عليه.

التزكية للأنفس بالفعل تسند الى الله تعالى (٣٦) لانه هو الخالق المقدر الموفق للفرد لفعل ما تزكو به نفسه، وهبه استعدادات فطرية لنمو جسمه وحفظه وعقله، ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها"، ثم قال "وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُم ورضحْمَتُهُ ما زَكَى مِنْكُم مِنْ أحدٍ أبداً، ولكِنَّ اللّهِ يُزَكّي من يشاء " ( النور:٢١)، وتسند الى الرسول صلى الله عليه وسلم، بصفته معلما مربيا للمؤمنين- هذه اشارة صريحة الى وظيفة المعلم في كل عصر- وباعتباره قدوة عملا وقولا، يبين ما في كتاب الله من ضوابط "هوَ الذي بَعَثَ في الأميينَ رَسُولاً مِنْهُم، يَتْلُو عَلَيْهِم آياتِهِ ويُزَكّيهِم ويعلِّمُهُم الكتابَ والحكمة" ( الجمعه:٢)، وتسند الى الفرد نفسه لكونه هو الفاعل في الواقع لما يكون سببا لطهارة نفسه وزكائها كالصدقات، وغيرها من الاعمال، والى هذا الدور الذاتي من الفرد تشير الايات " قد أفْلَح من زكّاها، وقد خَابَ من دسّاها" ( الشمسن: ٩-١) ، " قد أفلح منَ تَزكّى. وَذَكَر اسْمَ ربّهِ فصلى"(الاعلى :١٤-١٥).

ولا تكون التزكيه بالدعوى اللفظية، اي بالقول دون العمل " ولكل درجات مما عملوا" ـ( الانعام :١٣٢)، وانما تكون التزكية بالعمل الذي يجعل الفرد زاكيا، اي طاهرا كثير الخير والبركة، والتزكية بالفعل عبارة عن تنمية النفس بالفضائل، ولا يتم ذلك الا باجتناب الشرور التي تعارض الخير وتعوقه. ولا يتحقق ذلك الا بتحديد ما نفعل، ومالا نفعل، في مواقف عملية؛ لأن التربية عملية تكوين مواقف او اتجاهات عاطفية وعقلية، يكونها الفرد تجاه مكونات بيئته من انسان وغير انسان. وستكون الحياة المدرسية عملا نمطيا عقيما ان لهم تتحرك اهدافها وعملياتها برؤية مواقعها في حياة الناس، فيتبينون القيم، ويسعون اليها، ولا تكون هذه القيم مجرد عواطف خيالية لا سبيل الى تحقيقها ، بل تكون الاهداف واقعا يعود عليهم بالسعادة؛ ويعني ذلك أن التزكية في التربية إتباع منهج الله-الشريعة-في مواقف الحياة وتطبيقه، وهو يرتكز على قيم أساسها "إن اللهَ يأمُرُ بالعَدْلِ والإحْسان وإيتاء ذي القربى، وَيَنْهَى عن الفَحْشاء والمنْكَرِ والبَغْي، يَعِظُكُم لعلَّكُم تَذكَّرُون" (النحل: ٩٠).

التزكية عملية حياتية، إطارها الحياة الدنيا، والمراد بالحياة الدنيا ما تشتمل عليه الحياة من اللذات والمنافع والذوات الحسنة، وهذا إطلاق مشهور للحياة وما يرادفها، يفسره قول النبي صلى الله عليه وسلم "ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبُها..(٣٧)" أي الى منافع الدنيا، وهو على حذف مضاف اشتهر به. كذلك تشير آية" زُيِّن للنَّاس حُبُّ الشَهَوات من النِّسَاء والبَنِينَ والقَنَاطيرِ المقَنْطرَةِ من الذَّهَب والفضَّةِ والخَيْلِ المسوَّمَةِ والأنْعام والحَرْث، ذلكَ مَتَاعُ الحياةِ الدُّنْيا، واللهُ عِنْدَه حُسْنُ المآب "(آل عمران:١٤) إلا أنَّ في جبلة الانسان حبا للشهوات لازما، وهو إقبال النفس على ما في المزين من المستحسنات مع ستر ما فيه من الأضرار، فهو تحسين لما ليس خالص الحسن، فإنَّ مشتهيات الناس تشتمل على أمور ملائمة مقبولة، قد تكون في كثير منها مضار، أشدها أنها تشغله عن كماليات كثيرة، فلذلك كانت كالشيء المزين، تغطى نقائصه بالمزينات، هذا التزيين نتيجة إدراك الإنسان، وهو

أمر جبلي جعله الله في نظام الخلقة-حيث ذلل الله للإنسان الأنعام، وسخر له ما في الأرض، كذلك جبله على الشهوات خلقة لا دعوة، وهو ميل النفس الى موضوع هذه الشهوات، أي إلى الشيء المشتهي.(٣٨)

هذا التزيين قد يوافق وجه الخير، وهو الإباحة والطاعة، وليس بلازم أن يكون للشر، إلا إذا جعله الإنسان وسيلة للحرام، ولذلك يروى في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم القول" قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته وله فيها أجر؟ فقال"أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر". وسياق الآية السالفة يحرض ايضاً الإنسان الى أن يقصد بهذه الشهوات تزكية النفس وتفضيل معالي الأمور، وذلك واضح في قوله تعالى ختاماً لها: "ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب".

الشهوة-إذن-هي الدوافع الفطرية التي تدفع الإنسان لعمل يبقي نوعه أو يبقي بدنه. أما الهوى فهو تحكيم الشهوة وحدها في انجاز هذا العمل أو تركه، أما التزكية فهي تحكيم شريعة الله في إنجاز العمل أو تركه.

الشريعة جاءت لتخرج الناس عن دواعي أهوائهم، حتى يكونواعباد الله إختياراً وعن طواعية، وهذا لا يتم بوضع الشريعة على وفق أهواء النفوس، وطلب منافعها العاجلة كيف كانت.

لذلك قال ربنا سبحانه"ولو اتَّبَعَ الحقُّ أهْوَاءَهُم لفَسَدَتِ السَّمَواتُ والأرضُ ومن فِيهِنَّ، بَلْ أتَيْنَاهُم بذكرِهِم فَهُمْ عن ذكرهم مُعْرِضُون "(المؤمنون:٧١)" وإنَّكَ لَتَدْعُوهُم إلى صراطٍ مستقيم"(المؤمنون:٧٣)(٣٩). وهي تشترط القدرة في الإنسان على ما تكلفه به، وهي لذلك لا تطلب رفع الأوصاف التي طبع عليها الإنسان، كالشهوة الى الطعام والشراب، ولا تزيلها أو تزيل النوازع الفطرية، لأنه تكليف بما لا يطاق، وانما يطلب الدين قهر النفس عن الجنوح الى ما لا يحل، وإرسالها بمقدار الإعتدال فيما يحل، وذلك فيما ينشأ من الأفعال الداخلة تحت الإكتساب.(٤٠)

هذه الأوصاف أو الصفات الفطرية المطبوع عليها الإنسان نوعان "نوع مشاهد محسوس كشهوة الأكل والشرب، ونوع يثبت بالبرهان مثل العجلة، ودليلها في قوله تعالى "خُلِقَ الإنسانُ من عَجَلٍ"، ومثل الغضب.

التزكية-وهي تكليف-قد تقع على الباعث لهذه الصفات، كغض البصر أو الأمر به لمنع الشهوة الجنسية، أو إهداء المرء أخيه شيئاً طلبه لمحبته، لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "تهادوا تحابوا" أو تقع التزكية على شيء لاحق للصفة الفطرية كطلب عدم الغضب المثير لغريزة الإنتقام، ولذا ورد في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم"اتقو الغضب، فانه جمرة على قلب ابن آدم ... الى أن قال: فمن أحس بشيء من ذلك فليضجع وليتلبد بالأرض".

وهكذا فإن التزكية تقع على الأفعال المثيرة لهذه الصفات أو اللاحقة لها.

التزكية تقع في كل أمور الحياة "في الضرورات والحاجيات، والتحسينات. وهكذا وضع الإسلام نظاما من القيم، يضبط به الفرد والجماعة، ليحقق مصلحة العباد في الدنيا والآخرة معا، ولا تتحقق هذه المصلحة مع الإسترسال في اتباع الهوى والمشي مع الأغراض، لما يلزم في اتباع الهوى والشهوات من التهارج والهلاك والتقاتل، وهذا مضاد لمصالح الناس، وهذا أمر معروف بالتجارب والعادات وهو نسق شريعة الغاب.

وهي تقوم على العلم، وخير العلم ما كان قطعيا أو راجعا الى أصل قطعي، وهو في الإسلام شريعة الله في القرآن "كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون" وخير العلم أيضاً ما توافر له شرطان: شرط العموم والأطراد، والثاني ثبوته من غير زوال. ذلك لأن العلم مصدر ضوابط النمو والتنمية، ولذلك كان المقصد الأول للدين الإسلامي هو إخراج الإنسان عن داعية هواه، فاتباع الهوى مضاد للحق، ودليل قوله تعالى "أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم" (محمد:٢٤)، ثم وصفه النبي صلى

الله عليه وسلم بقوله "وماينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحي" فقدحصر الأمر في شيئين: الوحي وهو الشريعة، والهوى(٤١).

وهكذا ينبغي أن تكون الحياة في البيت وفي المدرسة حياة مواقف تتيح للفرد أن يلتفت الى مافيها من أمر أو نهي أو تخيير لا يصدر نشاطه عن مجرد التقليد، ولا عن مجرد الهوى، وإلا كانت مواقف باطلة تربويا، لأنه لا بد للعمل من حامل يحمل عليه، وداع يدعو اليه، فاذا لم يكن لتلبية الشرع او العقل في ذلك مدخل، فليس إلا مقتضى الهوى أو الشهوة، فالتزكية استثمار الفرد قواه العقلية وحواسه واستعداداته، فإن لم يتزك عقله ويتطهر من الخرافات والعقائد الباطلة، لا تتزكى نفسه بالتخلي عن الأخلاق الذميمة، ويكتسب العادات الفاضلة والقيم المحمودة، فلا يكون أسير الأوهام، وأخيذ الخرافات، يخاف في موضع الأمن، ويرجو حيث يجب الحذر والخوف، فتزكية النفس لا تتم إلا بتزكية العقل(٤٢). وقد أورد القرآن في مواضع كثيرة أمثلة لمواقف تؤدي الى التزكية، فذكر موضع انفاق المال بقوله "خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِم صَدَقَةً تُطَهِّرُهُم وتُزَكِّيهِم بها" يقول الرسول صلى الله عليه وسلم-وهو المربي-خذ من أموال المؤمنين على اختلاف أنواعها صدقة معينة كالزكاةالمفروضة، أو غير معينة وهي التطوع، فالصدقة ما ينفقه المرء قربة لله، تطهرهم وتزكيهم بها من دنس البخل والطمع والدناءة والقسوة على الفقراء، فالمطهرهنا هو "المعلم الرسول صلى الله عليه وسلم، والمطهر به هو الصدقة.

ويذكر القرآن بعض العادات، فينبه الى الإستئذان، وإلى غض البصر عن عورات الناس، فقال "يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيوتِكُم حتى تستأنِسُوا وتسلِّمُوا على أَهْلِهَا، ذلِكُمْ خَيرٌ لَكُمْ لعلَّكُم تَذكَّرُون. فإن لَمْ تَجدوا فيها أحداً فلا تَدْخُلوها حتى يُؤْذَنَ لكم، وإن قِيلَ لَكُم ارجعوا فارجعوا هو أَزكى لكم، والله بما تعملون عليم". إلى أن قال:"قُلْ للمُؤْمنين يَغُضُّوا مِنْ أبصارِهِم وَيَحْفَظُوا فروجَهُم، ذلكَ أزكَى لَهُم، إن اللّهَ خَبيرٌ بما يصْنَعون" (النور:٢٧-٣٠) والتزكية هنا طريقها الأسوة الحسنة لا القهر والسطوة والمطهر هنا هو المعلم، وهو الوالدان، والمطهر

به هو الإمتناع عن عمل محدد في موقع محدد. وهكذا فإن كل عمل صالح مفيد للفرد وللجماعة فيه تزكية، ما دام قام الفرد بهذا العمل عن قصد وتفكير في إطار نظام القيم.

## غاية الكسب والإحتراف

العمل ضميمة الإيمان بالله، فلا يذكر الإيمان الا ومعه العمل، وقد اوجز الله ذلك في سورة قصيرة بليغة " والعصر إن الإنسان لفي خسر. إلا الذين آمنو وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر" ولايصلح العمل إلا بالإيمان، لقوله تعالى "ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون" (الأنعام ٨٨) وإذا كان الإيمان بالله هو الباب المؤدي الى الحرية، فكيف تتوفر الحرية لفرد لا يعمل، لا يملك قراره، ومعاشه، ولهذا أجمع العلماء على أن الأصول الأساسية للدين ثلاثة، لخصها صاحب المنار (٤٣) فيما يلي:

١- الإيمان بأن لهذا الكون العظيم المتقن في وحدة نظامه وبديع أحكامه رباً، إلهاً واحداً أبدعه، وأتقنه بقدرته وحكمته بغير مساعد ولا واسطة، فلا تأثير لغيره في شيء منه إلا ما هدى هو الناس إليه باطراد سننه في الأسباب والمسببات.

٢- الإيمان بعالم الغيب والحياة والآخرة، وهذا ركن من أركان الأرتقاء البشري لأنه يبعث البشر الى الإستعداد لذلك العالم الأوسع الأكمل، ويعرفهم بأن وجودهم أكمل وأبقى مما يتوهمون.

٣- العمل الصالح الذي ينفع صاحبه وينفع الناس، لأن الدنيا دار عمل، ولأن الجزاء على الايمان والعمل معاً، ومن الغرور أن يظن فرد أنه ينجو من الخلود في النار بمجرد الإنتماء حتى الإيمان فإنه لم يثبت فضله مطلقا، بل من حيث التوسل به إلى العمل، فهو شرط في صحة العبادات، ووسيلة إلى قبولها، وهو لذلك أيضاً مقصود لنفسه، ومن هنا نقول إن الإيمان عمل من أعمال القلوب،

وهو التصديق، وهو ناشيء عن العلم،والأعمال قد يكون بعضها وسيلة الى البعض، وإن صح أن تكون مقصودة في أنفسها"(٤٤).

لفظ العمل المقرون بالإيمان لفظ عام، تدخل تحته أنواع كثيرة من الأنشطة، ولكنها في مجملها تحقق للفرد الفضل من الله، وهو المال وغيره من أنواع الكسب الذي يقيم الحياة طعاما، وشرابا، ولباساً، وينشأ كما تحقق أيضا رضوان الله، وهو حب الله للفرد وعطفه ورضاه، بشرط أن يقع نشاط الفـرد في إطـار المنهج الذي رسمه الله تعالى، وهو ما شرعه في كتابه وسنة نبيه. فإذا خالف الإنسان المنهج، تحقق له الجانب المادي وحده بحكم سنة الله في عباده، وفي نواميس الحياة الدنيا، وحبط عمله فيما يتعلق بجانب الرضى والطمأنينة في الدنيا، والسعادة والفوز في الدار الآخرة، تحقيقاً لقوله تعالى، "ولو أشركوا لحبِطَ عَنْهُم ما كانوا يعملون"، وقوله تعالى في المشركين والكفار " وقَدِمْنا إلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاه هَبَاءً مَنْثُورا" (الفرقان:٢٣).

## أنواع العمل:

العمل نوعان، النوع الأول فطري حيوي، واجب التحصيل، ناجز الحصول، وهو عمل المرء لمعاشه يحفظ به نفسه، يوفر أكله وشربه، وملبسه، ومسكنه. عمل اقتضاه وجوده في الأرض لقوله تعالى"هو أنْشَأكُم من الأرضِ واستَعْمَرَكُم فيها"(هود:٦١). وقد أشار الله الى هذه الأعمال، ممتنا على الناس بما وفره لهم من استعدادات وما سخره لهم من مخلوقات، فقال" والأرْضَ مَدَدْنَاها، وألقَيْنَا فيها رَوَاسيَ، وانبَتْنا فيها مِنْ كُلِّ شيءٍ مَوْزُون . وجَعَلْنا لكُم فيها معايِشَ وَمَنْ لَسْتُم له برازِقِين" (الحجر:١١-٢٠)، فذكر نعمته على الناس في تهيئته الأرض للحياة، وتهيئتهم هم أيضاً للعيش فيها بالعمل، وهذا يعني أن من غايات التربية أن يتعلم الإنسان كيف يعيش، فيوفر لنفسه معاشا، مستفيدا بما أوجده الله من أرض وماء وحيوان ونبات وجماد، ويوضح ذلك ابن كثير، مفسراً الآيات السابقة قائلا" فقد صرف الله الناس في الأرض في صنوف الأسباب والمعايش، بما يسر لهم من اسباب المكاسب ووجوه

الاسباب وبما سخر لهم من الدواب والأنعام(٤٥).

ثم يشير الله أيضاً إلى شيء آخر زود به الإنسان ليعمل هذا العمل، وهو تمكينه في الأرض، وتثبيته فيها، فجعلها له قراراً، وجعل فيها رواسي وأنهاراً، وسهل له الحركة والسعي، وسخر له الشمس والقمر والسحاب، فقال" ولقد مكناكم في الأرض، وجعلنا لكم فيها معايش، قليلاً ما تشكرون" (الأعراف:١٠)، ثم أكد العمل، وحثه على ذلك العمل بقوله" هُوَ الذي جَعَلَ لَكُم الأرضَ ذَلُولاً، فامْشُوا في مَنَاكِبِهَا وكُلُوا من رِزْقِه، واليه النُّشُور" (الملك: ١٥) فالأرض وما فيها ذلول سهل الأنقياد لكل من حاول وَجدَّ وأخذ بالأسباب.

ثم عطف العمل على الأمر بالتزكي في قوله" خذ من أموالهم صدقة.. وقال"وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون" (التوبة: ١٠٥) بمعنى اعملو لدنياكم ولآخرتكم، لأنفسكم ولأمتكم ما شئتم، فإنما العبرة بالعمل، لا بالإعتذار عن التقصير، ولا بدعوى الجد والتشمير، لأن خيرى الدنيا والآخرة منوطان بالعمل، وتذكروا أن الله ناظر إليكم، عليم بأعمالكم، فأتقنوا العمل واقصدوا به وجه الله، وزكوا به أنفسكم"(٤٦).

ومن يؤهل الناس للمعايش، ويعلمهم الأخذ بالأسباب؟ ويبصرهم الطريق؟ وقد ولدوا جهلة لا يعلمون شيئا، ضعافا لا يقدرون على شيء كما في قوله،"وهو الذي أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، لعلكم تشكرون".إنها التربية، وهذا غاية من غاياتها" كسب الحلال فريضة بعد الفريضة (٤٧)، أي العمل للحياة فريضة تالية لفريضة الإيمان فهو تكليف للفرد، وواجب عليه أن يعمل، ومن حقه على الدولة أن تعده لهذا العمل.

أما كونه فريضة وتكليف فواضح في قول الله تعالى" يا أيُّها الذين آمنُوا إذا نُودِيَ للصَّلاَةِ مِنْ يَومِ الجُمُعَةِ فاسْعَوا إلى ذِكْرِ اللّهِ وذَرُوا البَيْعَ، ذَلِكُم خَيْرٌ لكُم إنْ كُنْتُم تَعْلَمُون. فإذا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فانْتَشِرُوا في الأرضِ وابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللّهِ، وأذْكُرُوا اللّه كَثِيراً لعلّكُم تفلحون" (الجمعة: ٩-١٠)، وكان عراك بن مالك رضى الله عنه إذا صلى الجمعة انصرف فوق باب المسجد فقال: اللهم إني أجبت دعوتك وصليت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك وانت خير الرازقين (٤٨).

وقد أكد النبي صلى الله عليه وسلم فريضة العمل ووجوبه على كل فرد بقوله:"لأن يأخذأحدكم أحبلة ثم يأتي الجبل، فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها، فيكف الله بها وجهه، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه"(٤٩)، ثم يبين أن من حق كل فرد على الدولة أن تعينه على ذلك، وتعلمه إياه بفعله عليه الصلاة والسلام، وهو المعلم الأول- فقد روى البخاري عن أنس رضى الله عنه أن رجلاً من الأنصارأتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله-يعني طلب منه رزقا-فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أما في بيتك شيء؟ قال: بلى، حلس نلبس بعضه، ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه الماء، قال إئتني بهما، فأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده، وقال: من يشتري هذين ؟ قال رجل أنا آخذهما بدرهمين، فأعطاهما إياه، وأخذ الدرهمين، فأعطاها للأنصاري، وقال: اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه الى أهلك، واشتر بالآخر قدوما فأتني به، فأتاه به، فشدّ فيه الرسول الله صلى الله عليه وسلم عودا بيده، ثم قال: اذهب واحتطب، وبع، ولا أرينّك خمسة عشر يوما، ففعل فجاءه وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبا، وببعضها طعاما، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا خير لك من أن تجيء والمسألة نكتة في وجهك يوم القيامة (٥٠).

ومن غايات التربية أن تعد الإنسان لهذه الكفاءة الإجتماعية، ليكون فعالا، يستخدم قدارته الفطرية في عمل ذي معنى اجتماعي، يكتسب منه، وينفع نفسه،

وينفع به الناس، وأن تنمى هذه القدرات الى أقصى درجة من الكفاءة، لكي يختار ويصنع مسار حياته بنفسه ويحقق في النهاية غايات التربية وهي الحرية. فلا يذل لغيره، ويكون سيد قراره.

حدد النبي صلى الله عليه وسلم الظروف القاسية التي يحل للفرد المسلم أن يسأل فيها رزقاً من غيره، وعونا على عيشه، وحددها بطريق الحصر تبياناً لواجب العمل الشخصي، وحفاظا على حرية الفرد من أن ينالها ما يخدشها. حددها في الحادثة التالية:

عن أبي بشر قبيصة بن المخارق قال تحملت حمالة، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله فيها، فقال: أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها"، ثم قال: يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة، فحلت له المسألة حتى يصيبها، ثم يمسك. ورجل أصابته جائحة، اجتاحت ماله، فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش، أو قال سدادا من عيش، ورجل أصابته فاقة، حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجى من قومه: لقد أصابت فلانا فاقة، فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش، فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحت، يأكلها صاحبها سحتاً. (٥١)

وهكذا تتبين أيضاً كفالة الدولة للأفراد القادرين على الكسب إذا أصابهم العجز الطارىء؛ فالحمالة أن يقع قتال ونحوه بين فريقين، فيصلح إنسان بينهم على ماله يتحمله ويلتزمه على نفسه. والجائحة الآفة تصيب مال الإنسان فتهلكه. والقوام هو ما يقوم به أمر الإنسان من مال ونحوه. والسداد ما يسد حاجة المعوز ويكفيه. والفاقة، الفقر، والحجى العقل.

وهكذا العمل تكليف للفرد، وتؤهله له التربية، ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أكل أحد طعاماً خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داوود صلى الله عليه وسلم كان يأكل من عمل يده (٥٢)- هذا العمل التكليفي هو

الإحتراف، بمعنى العمل في صنعة، أو حرفة، أو تجارة أو زراعة ....الخ، من هذه الأعمال التي تمكنه من تحصيل مقومات الحياة مالاً، وطعاماً، ولباساً، وسكناً...الخ.

النوع الثاني من العمل هو العمل المجتمعي، الذي يقوم به الفرد باعتباره عضوا في جماعة، مسؤولاً عنهم كما هو مسؤول عن نفسه. ولقد أوضحت الآية السابعة والسبعون بعد المائة من سورة البقرة هذه الأعمال بعد أن ذكرت الأصلين الأول والثاني- وهما الإيمان بالله ربا واحدا، والإيمان باليوم الآخر والملائكة والنبيين وكتبهم، وهما من أعمال القلب-ذكرت أعمالاً هي: إنفاق المال في مواضع ستة، وتزكية النفس بالصلاة والزكاة تمهيداً لحسن الإجتماع، والوفاء بالعهود الدينية والمالية والحربية، والصبر في مواقف الشدة الثلاثة، واحتمال المكروه فيها بنوع من الرضى والإختيار حتى تنقضي، هذه الأعمال في جملتها هي الأعمال التي تتضمنها مسؤولية الفرد الإجتماعية والتي تدربه على تحمل هذه المسؤولية-وهكذا تنطق الآية بها على أنها أعمال البر التي تدل على صدق إيمان من يؤديها، ثم تكون سبيلاً لفلاحه. فتقول الآية: لَيْسَ البِرَّ أن تُوَلُّوا وجُوهَكُم قِبَلَ المشْرِقِ والمغْرِبِ، ولكِنَّ البِرَّ مَنْ آمنَ باللّهِ واليومِ الآخِرِ والملائِكَةِ والكِتَابِ والنَّبِيِّين، وآتى المالَ على حُبِّه ذوي القُرْبَى اليَتَامَى والمساكِينَ وابنَ السبيلِ والسائلينَ وفي الرقَابِ، وأقامَ الصلاةَ وآتى الزكاةَ، والموفُونَ بعَهْدهمْ إذا عاهَدُوا، والصَّابِرِينَ في البأسَاءِ والضَّرَّاءِ وحِينَ البأسِ، أولئكَ الذينَ صَدَقُوا، وأولئكَ هُمُ المتَّقُون" (البقرة: ١٧٧).

هذان الصنفان من الأعمال، الحيوي والمجتمعي، يكمل كل منهما الآخر في الوسائل والغايات، يبدأ كل منهما حيث ينتهي الآخر، وينتهي حيث يبدأ. الفرد يسعى بحرفته أو صنعته، باذلاً جهداً، فيصيب خيراً من مال أو قوة أو سلطان، ثم ينفق بعض هذا الخير لقريب أو مسكين باذلاً جهدا نفسياً، فيصيب حباً وأمناً، فيزداد قوة، فيعمل بحرفته فيصيب خيراً، وهكذا ينفقه في سبيل الله في دفاع عن وطنه، فيزداد أمناً وسلامة، واطمئناناً، فيعمل بحرفته وهكذا دواليك.

لهذا التكامل، ولضرورة هذه الأعمال لم يفصل الله بينها وبين أعمال العبادات من قراءة قرآن أو صلاة أو حج بل نبه المسلمين الى الموازنة بينها، فأباح للمسلم أن يسعى لكسب معاشه أثناء حجه، وقال لَيْسَ عَلَيْكُم جُنَاحٌ أن تَبْتَغُوا فَضْلاً من ربِّكُم، فاذا أفضْتُم من عرفاتٍ فاذْكُروا اللّهَ عند المشْعَرِ الحرام" (البقرة:١٩٨)، وأباح للناس نوعاً من الصيد في الحج حتى يقتاتوا ويحتفظوا حياتهم، فقال: أحل لكم صيدُ البَحْر وطعامهُ متاعاً لكُم وللسيارة، وحرم عليكم صيدُ البَرِّ ما دُمْتُم حُرُمًا، واتقوا اللّهَ الذي إليْهِ تُحْرون (المائدة: ٩٦).

ثم قال في شأن القيام بالليل وصلته بأداء هذه الأعمال الحيوية والمجتمعية مخففاً عن المسلمين من عناء قيام الليل استعداداً للعمل بالنهار، قال:" واللّهُ يُقَدِّرُ الليلَ والنَّهَارَ، عَلِمَ أن لَنْ تُحْصُوه فتابَ عليْكُم، فاقرأوا ما تَيَسَّر من القرآن، عَلِمَ أن سيكونُ مِنْكُم مرضى، وآخرون يَضْرِبون في الأرض، يبتَغُون من فَضْلِ اللّه، وآخرون يقاتلون في سبيل الله-فاقرءوا ما تَيَسَّر مِنْه، وأقيمُوا الصّلاةَ وآتُوا الزكاةَ، وأقْرِضُوا اللّهَ قَرْضاً حَسَنا"(المزمل: ٢٠)

## ميزان الأعمال:

عمل الإنسان إما مصلحة أو مفسدة، والمصلحة إما أن تكون مصلحة لحياته الدنيا، أو مصلحة للدار الآخرة، وهو مأمور من الله بها، ويتأكد الأمر بها على قدر مراتبها في الحسن والرشاد. ،إذا عظمت المصلحة أوجبها الرب في كل شريعة،" المصالح الدنيوية منها ناجزة الحصول، كمصلحة المآكل والمشارب والملابس والمساكن، والمراكب(٥٣)، ومن المصالح ما هو فرض عين كتعلم ما يتعين تعلمه من حرفة أو صنعة وأحكام الشريعة، والمقصود بفرض تكليف الأعيان حصول المصلحة لكل واحد من المكلفين على حدته(٥٤).

ولا تعرف المصالح التي تفيد الإنسان في دنياه وآخرته، وبالتالي الأعمال المؤدية إليها، إلا بالشرع، بكتاب الله وسنة رسوله. أما المصالح الدنيوية فقط

وأسبابها ومفاسدها فطريق معرفتها وتحديدها هي التجربة والعادة والظنون المعتبرات، فإن خفي شيء من ذلك طلب من أدلته، وعلى الإنسان أن يعرض ذلك كله على عقله بتقديرأن الشرع لم يرد به، ثم يبنى حكمه، فلا يكاد حكم منها أن يخرج عن ذلك إلا ما تعبد الله به عباده، ولم يقفهم على مصلحته أو مفسدته، وعلى ذلك فمعظم مصالح الدنيا ومفاسدها، معروف بالعقل"(٥٥).

من الفقرتين السابقتين يتبين أن على رجال الدولة وعلماء التربية معاً أن يقرروا الأعمال التي ينبغي أن يكلف بها فرد فيتعلمها فرض عين، ويدخل فيها تلك الأعمال التي سبقت الإشارة إليها باعتبارها أعمال المعاش وأعمال سلامة المجتمع وأمنه وتماسكه. كما بيّنتا ايضا بالإضافة الى هذا مبدأ آخر هاما يقرره الدين الإسلامي، وهو وظيفة العلم.

ووظيفة العلم تشير إلى نوع آخر من الأعمال، ينبغي أن تتوجه إليها التربية فلسفة وطريقة. فكل مسألة علمية لا ينبني عليها عمل-- ولو بعد حين-فالخوض فيها خوض فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعي، وأعني بالعمل عمل القلب (العقل) وعمل الجوارح من حيث هو مطلوب شرعاً(٥٦)، هذه الأعمال ليست فرض عين، ولكنها تتنوع بتنوع الظروف والأفراد والمجتمعات.

الدليل على ذلك استقراء الشريعة، "فإنّا رأيْنا الشارع يعرض عما لا يفيد عملا ملكفا به، ففي القرآن الكريم" يسألونك عن الأهلة، قل هي مواقيت للناس والحج" (البقرة: ١٨٩) فوقع الجواب بما يتعلق بالعمل إعراضاً عما قصده السائل عن الهلال: لِمَ يبدو في أول الشهر دقيقاً كالخيط، ثم يمتلىء حتى يصير بدراً، ثم يعود إلى حالته الأولى، وهذا أليق بحال المتعلم"(٥٧)، وهكذا لما سئل الرسول عليه الصلاة والسلام عن الساعة، قال للسائل: ما أعددت لها؟ إعراضاً عن صريح سؤاله إلى ما يتعلق بها مما فيه فائدة، ولم يجبه عما سأل(٥٨).

إنما نعلم الناشئة لتعمل، وروح العلم هو العمل، وإلا فالعلم عارية وغير منتفع به-"وإنما يخشى الله من عباده العلماء" (فاطر: ٢٨) وقال "وإنه لذو علم لما علمناه" (يوسف: ٦٨)، وفسرها قتادة بقوله: يعني لذو عمل بما علمناه. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن خمس خصال-وذكر منها" وعن علمه ماذا عمل فيه؟ رواه الترمذي. فالعلم بوجود الله والإيمان به يستوجب أو يعني المحافظة على الحرية التي تتطلبها عبادته وحده، ولا تأتي هذه الحرية بغير عمل يستغنى به الفرد عن الناس.

## غاية البحث عن العلم أو تعليم الفرد كيف يتعلم:

وهي الغاية التي تضمنها قو ل الله تعالى في بيان وظائف المربي الأول-الرسول صلى الله عليه وسلم- ممتنا بذلك على المؤمنين: "كما أَرْسَلْنا فِيكُم رَسُولاً مِنْكُم يَتْلُو عَلَيْكُم آياتِنا، ويُزَكِّيكمُ ويُعَلِّمُكم الكتابَ والحِكْمَةَ، ويُعَلِّمُكَم ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُون" (البقرة:١٥١)، وهي استثمار للإستعداد الفطري عند الإنسان الذي أشار اليه الله في أول سورة أنزلت من القرآن بقوله"علم الإنسان ما لم يعلم"(العلق:٥).

ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون مع الكتاب والحكمة، ويعلمكم ما لم يسبق لكم به علم من شئون العالم ونظام البيوت والمعاشرة الزوجية وسياسة الحروب والأمم ... الخ، وقال الإمام محمد عبده،" ويصح أن يراد ما لم تكونوا تعلمون من شئون أنفسكم والسنن الإلهية الحاكمة فيكم، فالتعليم ليس محصوراً في الكتاب، بل هناك زيادة أعد الله تعالى نبيه لتبيينها"(٥٩) وهكذا توجد أمور وتقع أحداث في الحياة خاصة وفي الكون عامة، وتجد أحداثاً تجعل التعلم والوقوف على اسرارها، وكيفية معالجتها ضرورة، ولذلك مثل واضح فيما جد من حالة الخوف وفي وقت من أوقات الرسالة، فيتعلم المسلمون كيف يواجهون هذا الحدث الجديد، وقال فيه الله تعالى: " فاذا أَمِنْتُم فاذْكُرُوا اللّهَ كَمَا عَلَّمَكُم ما لم تكونوا تعلمون" (البقرة:٢٣٩)

أى علمكم بتوجيه من الرسول كيف تعبدون وتصلون له في حال استجدت عليكم-وهي حالة الخوف(٦٠) ومثال آخر ورد في سورة النساء خاص بالإنتصارللعدالة، وهو حادث بنى أبيرق، حيث حاولوا اتهام شخص يهودي برىء بجريمة اقترفها واحد منهم، هو طعمة بن أبيرق، فسلك فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلكاً علم الناس به كيف يكون الإنصاف، وفي ذلك جاءت الآية تقول: "وَلَوْلا فَضْلُ اللّه عَلَيْكَ ورَحْمَتُه لهَمَّت طَائفةٌ منهم أن يُضلّوك، وما يُضلّونَ إلا أنفسَهُم، وما يُضرُّونَك من شَيْء، وأنزل اللّهُ عليكَ الكتابَ والحِكْمَةَ، وعلّمَكَ ما لَمْ تكن تَعْلَم. وكان فضلُ الله عليك عظيماً" (النساء:١١٣)

وهكذا سُنَن الله في الكون عديدة متجددة، والعلم غير محدود، والإرادة الحرة المطلقة التي منحها الله الإنسان، وكون هذا العلم لازم لهذه الإرادة الحرة، وكونه أيضاً لا يكتسب إلا بالتدريج، يقتضي التعلم. هذا العلم الواسع لا يعطاه الفردولا مجموعة الناس دفعة واحدة، وكلما أوتى الفرد نصيبا من العلم ظهر له من جهله ما لم يكن يعلم، وكلما أعطى حظاً من الأدب والعقل ظهر له ضعف عقله، فهو على سعة علمه لم يؤت من العلم الإلهي الا قليلا، ولذلك لزم التعلم ليحيط بوجوه المصالح والمنافع، فقد يوجه الإرادة الى خلاف المصلحة والحكمة.

التعلم هو الدخول في العلم، ولذلك يسمى الفرد متعلما-وعلمته الشيء فتعلم، وهناك فرق بين أعْلَمَ الإنسانُ غيَره فيكون الأعلام، وهو الوقوف على شيء، فيعلم الفردما جهله، وبين علم الإنسانُ غَيْرَه، فيكون التعلّم، وهو معرفة الشيء وسره، فيكون الفرد متعلماً بذاته. وهذا هو جوهر هذه الغاية التربوية.

أودع الله في نفس الإنسان علم جميع الأشياء من غير تحديد ولا تعيين "وعلّمَ آدمَ الأسماءَ كُلّها" (البقرة: ٣١)، فالمراد بالأسماء المسميات، عبر الله عن المدلول بالدليل، لشدة الصلة بين المعنى واللفظ الموضوع له،وسرعة الإنتقال من أحدهما للآخر، والعلم الحقيقي إنما هو إدراك المعلومات نفسها، لأن الألفاظ الدالة عليها تختلف باختلاف اللغات، تتغير وتختلف، والمعنى لا تغير فيه ولا إختلاف.

هذا الإستعداد للتعلم موجود عند الناس كلهم، ولا يلزم من ذلك أن يعرف كل الناس الأسماء من أول يوم يولدون فيه، ولكن يكفي في ثبوت هذه القوة لهم معرفة الأشياء بالبحث والإستدلال، هذه هي وظيفة التربية.

يولد الإنسان وليس له من الإلهام إلا الصراخ بالبكاء، ثم يحس ويشعر بالتدريج البطيء بالنسبة لغيره من الحيوان، ويعطى قوة العقل تتصرف بشعوره وإحساسه تصرفا يكون له به السلطان على ما حوله من الكائنات، فيسخرها، ويذللها كما يشاء، هو بذلك يتفوق على كل ما وهب للحيوان في أصل الفطرة من مواهب بلا كسب في تحصيل طعامه وشرابه، فالإنسان بهذه القوة غير محدود الإستعداد، ولا محدود الرغائب ولا محدود العلم، ولامحدود العمل. فهو على ضعف أفراده يتصرف بمجموعه في الكون تصرفاً لا حد له بإذن الله. ثم اعطاه الله على يد الرسل الكرام أحكاماً وشرائع حدَّ له فيها لأعماله وأخلاقه حدودا، لان الحواس والعقل وحدها لا تكفي لسعادة البشر. " الذي أَحْسَنَ كلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وبَدَأَ خَلْقَ الإنسانِ مِنْ طِين، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِن مَاءٍ مَهِين، ثُمَّ سَوَّاهُ ونَفَخَ فيه مِنْ رُوحِهِ، وجَعَلَ لَكُم السَّمْعَ والأبْصَارَ والأفْئِدَةَ، قليلاً ما تشكرون (السجدة: ٧-٩)، فغاية التربية أذن هي تربية الحواس، وتربية العقل، مهتدية بدين الله في الحكم. وبهذا يستحق الإنسان الخلافة في الأرض، هذه الغاية تظهر آثار الإنسان في خلافته على الأرض في عجائب صنعه في المعدن والنبات والبر والبحر، يتفنن، ويبدع، ويكتشف، ويخترع، ويجد، ويعمل، حتى غيَّر ويغير شكل الأرض، ويجعل الوعر سهلا، والماحل خصبا ...ألخ. أليس من حكمة الله الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى أن جعل الإنسان بهذه الاستعدادات خليفته في الارض، يقيم سننه، ويظهر عجائب صنعه واسرار خليقته، وبدائع حكمه، ومنافع أحكامه، وقد خلقه في احسن تقويم؟

لهذه الغاية التربوية -غاية تعليم الفرد كيف يتعلم- معنى اجرائي عملي توضحه الآيات التالية :"واللَّهُ أخْرَجَكُم مِنْ بُطُونِ أمَّهَاتِكُم لاتَعْلَمُون شيئاً، وجَعَلَ

لكُم السمعَ والأبصارَ والأفْئدَةَ، لعلّكُم تَشْكرون"(النحل : ٧٨) "ولا تَقْفُ ما لَيْس لكَ به علمٌ إنَّ السمعَ والبَصَرَ والفؤادَ، كُلُّ أولئكَ كان عَنْه مَسْئولاً (الاسراء : ٣٦) "ولقد ذَرَأنَا لجهَنّم كثيراً من الجنِّ والإنْس، لهُم قلوبٌ لا يفْقَهُون بها، ولَهُم أعينٌ لا يُبْصرون بها، ولهم آذانٌ لا يسمَعُون بها، أولئكَ كالأنعامِ بَلْ هُمْ أضَلُّ، أولئك هم الغافلون" (الاعراف : ١٧٩) فهي تعني أن يتعلم الفرد كيف يستخدم حواسه وعقله، ويلاحظ الظاهرات كيف تحدث؟ ومتى تحدث؟ ولماذا تحدث؟ ويربط بين مكوناتها، وبين اسبابها ومسبباتها، فيفقه سرّها فيتعلم بعد جهل كما اشارت الآية الأولى، ويكون مسؤلاً عن كل ما يفعل أو يلاحظ أو يستنتج، كما أشارت الآية الثانية، ثم يكون دارياً بالكائنات حوله، واعياً بما ينشأ من تواجدها من مشكلات، فيربط بين المقدمات والنتائج، فلا يكون من الغافلين، فالعلم بالتعلم، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" وليس العلم بكثرة الحديث، ولكن العلم بالخشيةً، كما رُوي عن ابن مسعود رضي الله عنه (٦١) وإلى ذلك تشير الآية " أفَلَمْ يَسيرُوا في الأرض فتكونَ لهُم قُلوبٌ يَعْقلُون بها، أو آذانٌ يسمَعُون بها، فإنّها لا تَعْمى الأبصارُ ولكن تَعْميَ القلوبُ التي في الصُّدُور " ( الحج : ٤٦٠ )

المسألة إجتهاد من جانب الفرد، تتضح فيه ايجابيته، ولذلك ذمّ الله من غضب عليهم بقوله "لهم قلوب لا يفقهون بها"، ولم يقل ليس لهم قلوب، ولم يقل أيضا "لهم قلوب لا تفقه" لبيان أنهم المؤاخذون بعدم توجيه إرادتهم لفقه الأمور، واكتناه الحقائق مع أنهم قد منحوا القلوب المستعدة لذلك"(٦٢). فليس التعلم هنا هو الحفظ ولا مجرد تلقى المعلومات من الغير.

القلب أو العقل يفقه، وفقه الشيء هو العلم به وفهمه وفسروه في جل المعاجم أو كلها فقالوا: فَقِه كَعلِمَ وَفهِمَ وزناً ومعنى. وقال الراغب: الفقه هو التوصل بعلم شاهد الى علم غائب، ويعقب على ذلك السيوطي بقوله الفقه أخص من العلم. وقد ذكرت مادة فقه في القرآن الكريم في عشرين موضعا، تسعة عشر منها تدل على ان المراد به نوع خاص من دقة الفهم والتعمق في العلم الذي يترتب عليه الانتفاع به،

وأظهره نفى الفقه عن الكفار والمنافقين، لأنهم لم يدركوا كنه المراد مما نفى فقهه عنهم، ففاتتهم المنفعة من الفهم الدقيق والعلم المتمكن من النفس"(٦٣).

فقه العقل معناه أن يدرك الفرد العلاقات والمعانى التي تحويها الآيات الكونية، ما أشير إليه منها في القرآن، وما لم يُشر إليه من سنن كونية وتشريعية واجتماعية، ويدرك المعنى من حيث علاقتها بالدين والدنيا ورقي النفس ورقي الانسانية، ومن حيث العبرة فيها وصولاً الى الحرية الكاملة، ففقاهة الأمر تقتضي العمل بموجبه.

كذلك العين، والاذن، فكثير من الناس لهم عيون ولكن لا يبصرون بها، ولهم آذان ولكن لا يسمعون بها، أي لهم أبصار واسماع لا يوجهونها الى التأمل والتفكر فيما يرون من الظواهر والسلوك، وآيات الله في خلقه، وفيما يسمعون من أخبار التاريخ الدالة على سنن الله في خلقه، فيهتدوا بكل منها الى ما فيه سعادتهم في دنياهم واخراهم. فإن الآذان قد خلقت لتفيد الانسان من كل ما يسمع، لا من القرآن فقط، كما أن الابصار خلقت للانسان ليفيد من كل ما يبصر، وانما يكون ذلك على كمال بتوجيه ارادته الى استعمال كل منها فيما خلق له. هذه هو وظيفة التربية، تعلم الفرد كيف يلاحظ؟ وكيف يسمع؟ وكيف يجرب؟ ويصل بين المسموعات والمرئيات برباط. وهكذا قال تعالى: "أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُم كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِم مِنَ القُرُونِ يَمْشُونَ في مساكِنِهِم، إنَ في ذلكَ لآيات، أفلا يَسْمَعون؟ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَا نسُوقُ الماءَ الى الأَرْضِ الجُرُزِ، فنُخْرِجُ به زَرْعاً تأكلُ مِنْهُ أنْعَامُهُم وأنْفُسُهم أفلا يُبْصرون" (السجدة: ٢٦-٢٧).

فالغاية من التربية أن يتعلم الفرد كيف يكون منتبهاً فطناً لكل ما يدور حوله من ظواهر وعمليات، وهذه صفة المبدعين، فهم لا يقنعون بالنظرة العابرة، ولا السماع الطائش، بل لا يعرضون عما يرون، ولا يلههم الهوى والملذات عما يسمعون، "ولا تَكُونُوا كالذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُون" الأنفال:(٢١)" أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، وأولئك هم الغافلون" (النحل:١٠٨).

كذلك يقتضى التعلم، تقصى أسرار ما نتعلم، وسبر أغواره، والوصول الى الحكمة من كل ظاهرة، وعدم الوقوف عند مظاهرها التركيبية، ومكوناتها المادية، وأسبابها، وإنما يتعلم المتعلم ويتدرب على استنباط الحكمة منها، وخالقها، الذى وهبه الحرية، غاية الغايات، طريقاً الى السعادة في الدنيا والآخرة. فلا يقف بحث المتعلم في الظاهرة عند منافع الأشياء للانتفاع بها في الدنيا من غير ملاحظة كونها آيات دالة على أن لها رباً خالقاً، مدبراً عليماً، حكيماً، مريداً، قديراً، رحيماً يجب أن يعبد وحده، وأن يخشى وحده، وأن تكون غاية الغايات هي رضاه وحده. لأن إرادة التعلم لمجرد الوقوف على الأسباب والمسببات والسر فيها، واستنباط حقائق العلم ونفعه المادي يؤدي الى استعمال العلم فيما يضر الانسان، ويدمر العمران، ويستعبد الألوف من البشر، فينفى غاية التربية، وهي الحرية لكل فرد على وجه الأرض.

لذلك يكون من يتعلم العلم باستخدام ادواته من حواس وعقل استخداماً صحيحاً، ويقف عند هذا الحد من منافع الحياة الدنيا ولذاتها غافلاً عن الحرية له وللجميع، داخلاً فيمن وصفهم الله بقوله: "يَعْلَمُونَ ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون" (الروم:٧). وقد جمعت آيه الاعراف هؤلاء بقول الله سبحانه وتعالى "ولقد ذَرَأنَا لجهَنَّمَ كثيراً من الجنِّ والإنْسِ، لَهُم قلوبٌ لا يَفْقَهُون بها، ولَهُمْ أعينٌ لا يُبْصِرون بها، ولهم آذانٌ لا يسْمَعُون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضَلُّ، أولئكَ هُمُ الغافلون" (الاعراف:١٧٩).

هذه الغاية من التربية غاية أن تربى المتعلم ليتعلم ما لم يعلم، تربية حرة استقلالية يُعمل حواسه، ويعمل عقله، هي على النقيض مما يجري في كثير من دور العلم، حيث يبنى بعضها التعلم على اعتقاد سابق، وفكر مبيت قد يكون باطلا في كثير من الاحيان، أو يبنى بعضها التعلم على ترديد ما سبق به الاولون او القدامى

من العلماء دون التفات من المعلم والمتعلم الى الحق فقط والبحث عما هو صواب. هذاالاتجاه يورث المتعلم مراناً، يعوده عادة استحسان ما يلقن، وقد يكون فاسداً ويفقده الحافز والدواعي والاسباب التي تعطفه الى النظر والفكر، ولا يدخل عقله الا ما رسخ فيه، ولا يسمع سماع تأمل وتفقه، ولا تدرك عينه واذنه شيئاً حيث فقد حقيقة عملية التعلم، وحرم من فوائد حواسه، وهكذا يضعف عقله ويفسد بفساد التربية.

# الهوامش

١- سورة الذاريات: ٥٦.

٢- مجمع البحوث الاسلامية بالازهر الشريف: التفسير الوسيط، الحزب الأول، ص ٧١.

٣- المقصود بالآية قوله تعالى : وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون.

٤- الفخر الرازي: تفسير القرآن العظيم، ج٣٠، ص ١٦.

٥- جون ديوى :الديموقراطية، ترجمة نظمي لوقا، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧٨م.

٦- عبد الكريم الخطيب: التفسير القرآني للقرآن، مطبعة السنة المحمدية، ١٩٧٠م،جـ٢٩.

٧- عبد الكريم الخطيب: التفسير القرآني للقرآن، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٧٠م.

٨- المرجع السابق،

٩- ابو الفداء اسماعيل بن كثير: تفسير القرآن العظيم، دار احياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه-مصر ص ٢٦.

١٠- ابو الفداء اسماعيل بن كثير: المرجع السابق، ص ٢٥.

١١- ابو الفداء اسماعيل بن كثير : المرجع السابق، ص٢٥.

١٢- مجمع البحوث الاسلامية بلازهر: التفسير الوسيط، الحزب الاول، ص ٢٦.

١٣- ابو الفداء اسماعيل بن كثير: المرجع السابق جـ١.

١٤- المرجع السابق، ص٣٧١.

١٥- محمد رشيد رضا: تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، جـ١، ص ٣٢.

١٦- ابو العباس احمد القلقشندي: صبح الاعشى في صناعة الانشا، وزارة الثقافة والارشاد القومي بمصر، ص ٥٣.
١٧، ١٨- عائشة عبد الرحمن"بنت الشاطىء"، القرآن وقضايا الانسان، وزارة المعارف، المملكة العربية السعودية، ص٥٥
١٩- عائشة عبد الرحمن: المرجع السابق، ص ٥٦.
٢٠- ابو الحسن علي بن محمد: الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، المجلس الاعلى للشئون الاسلامية، لجنة احياء التراث، مصر، ص ٧٠.
٢١، ٢٢ ابو الحسن علي بن محمد: الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، المجلس الاعلى للشئون الاسلامية، لجنة احياء التراث، مصر، ص ٧١.
٢٣، ٢٥- ابو الحسن علي بن محمد: المرجع السابق، ص ٧٢-٧٣.
٢٦- الشيخ عبد الحليم محمود: الاسلام والعقل، ص ٢٠٨-٢٠٩.
٢٧- الشيخ عبد الحليم محمود: الاسلام والعقل، ص٢١١.
٢٨، ٢٩- محمد رشيد رضا تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، جـ٧، ص٢٩٢-٢٩٣، جـ١، ص٣٨٩.
٣٠- ابو العباس احمد القلقشندي: صبح الاعشا في صناعة الانشأ، وزارة الثقافة والارشاد القومي، مصر، ١٩٦٣م،
٣١- الفخر الرازي: تفسير القرآن العظيم،جـ١.
٣٢- ابو حامد الغزالي ميزان العمل، حققه سليمان دنيا، دار المعارف، بمصر.
٣٣- الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، الدار التنوسية للنشر، ١٩٨٤م.
٣٤- ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف بمصر، ص١٠٤٣
٣٥- ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، بمصر، ص١٨٤٨.

٣٦- محمد رشيد رضا: تفسير المنار، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، جـ ١١، ص ٢٠

٣٧- هذا جزء من حديث رواه البخاري؛ وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم:" انما الاعمال بالنيات، وانما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته...الخ".

٣٨- الامام ابو اسحق الشاطبي: الموافقات في اصول الشريعة، دار المعرفة، بيروت، جـ١، ص ٤٩.

٣٩، ٤٠ الامام ابو اسحق الشاطبي: الموافقات في اصول الشريعة، دار المعرفة، بيروت، جـ١، ص ٤٩.

٤١- الامام عز الدين بن عبد السلام السلمي: قواعد الاحكام في مصالح الانام، دار الجيل، بيروت.

٤٢- محمد رشيد رضاك تفسير المنار، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، جـ٢.

٤٣- محمد رشيد رضاك تفسير المنار، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، جـ٢، ص ٢٥٣-٢٥٤.

٤٤- الامام ابو اسحق الشاطبي: الموافقات في اصول الشريعة، دار المعرفة، بيروت، جـ١، ص ٦٩.

٤٥- ابو الفداء اسماعيل بن كثير: تفسير القرآن اعظيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، جـ٢.

٤٦- محمد رشيد رضا: تفسير المنار، جـ ١٠ "سورة التوبة".

٤٧- رواه الطبراني والبيهقي، انظر: عبد الله ناصح علوان: تربية الأولاد في الإسلام، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، جـ ٢، ص ٩٢٨.

٤٨- أبو الفداء اسماعيل بن كثير: تفسير القرآن العظيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر جـ ٤، ص ٣٦٧.

٤٩- محمد اسماعيل البخارى: صحيح البخاري، دار ومطابع الشعب، جـ١، ص ٢٨١.
٥٠- عبد الله ناصح علوان: تربية الأولاد في الاسلام، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، جـ ١، ص ١٤٠-١٤١.
٥١- صحيح مسلم بشرح النووي، المطبعة المصرية ومكتبتها، القاهرة، ١٩٢٤، جـ ١، ص ٢٥٩.
٥٢- محمد اسماعيل البخارى: صحيح البخارى، جـ١، ص ٢٨٢.
٥٣، ٥٤- الامام عز الدين بن عبد السلام السلمى: قواعد الاحكام في مصالح الأنام، دار الجيل، بيروت ص ٤٣.
٥٥- الامام عز الدين بن عبد السلام السلمى: المرجع نفسه، ص ١٠.
٥٦، ٥٧- الامام أبو اسحق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، دار المعرفة، بيروت، جـ١، ص٤٦.
٥٨- محمد اسماعيل البخارى: صحيح البخارى، دار ومطابع الشعب، القاهرة، مصر.
٥٩، ٦٠-محمد رشيد رضا: تفسير المنار، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، جـ٢، ص ٢٦، ص ٣٥٢.
٦١- ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، ص ٣٠٨٣.
٦٢، ٦٣-محمد رشيد رضا: تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، جـ١،ص ٣٥٢.